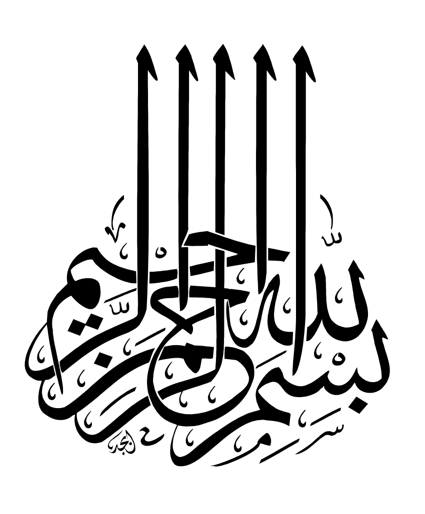
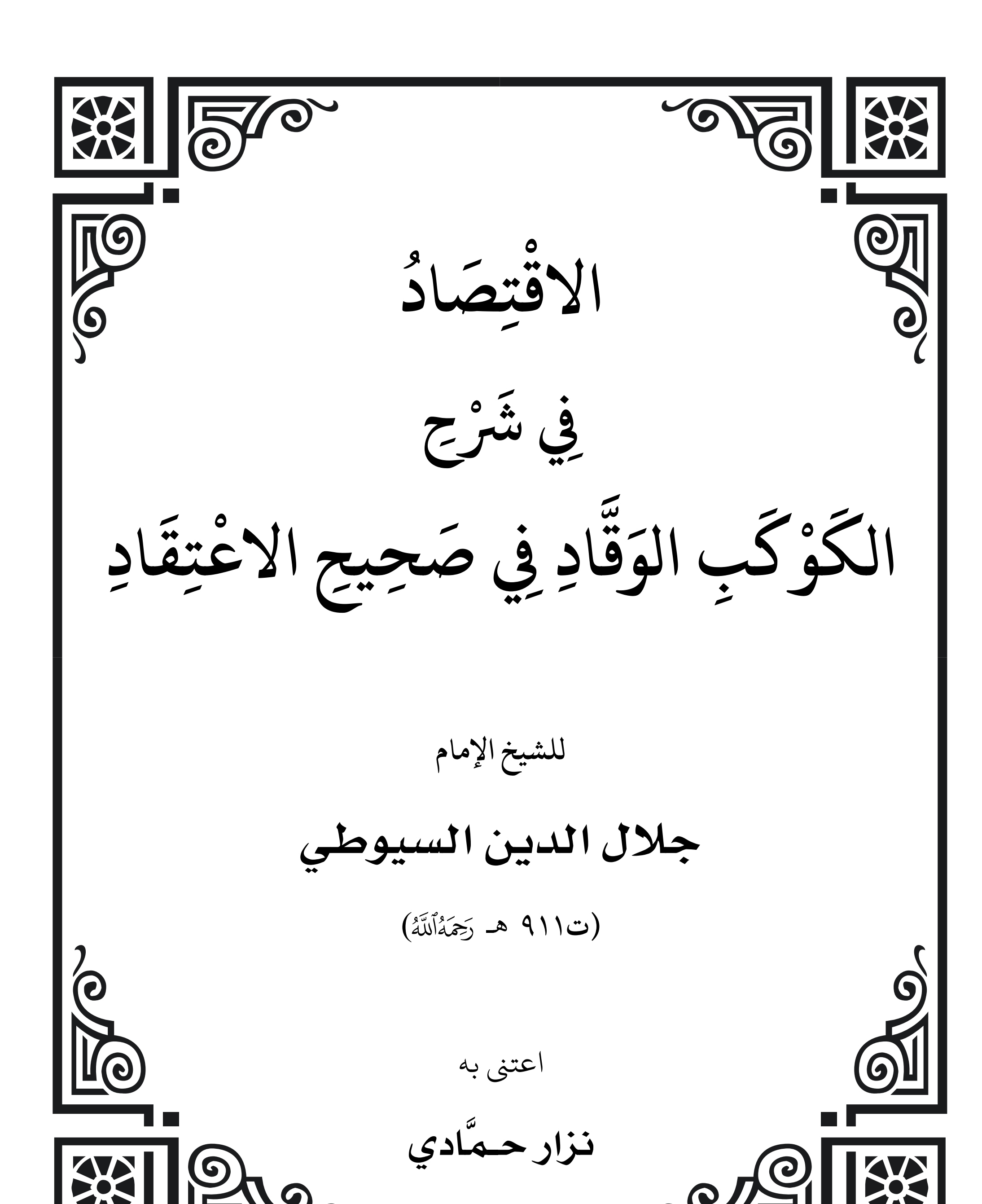

بسم الله الرحمن الرحيم



الاقْتِصَادُ
فِي شَرْحِ
الكَوْكَبِ الوَقَّادِ فِي صَحِيحِ الاعْتِقَادِ

للشيخ الإمام

جلال الدين السيوطي

(ت٩١١ هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ)

اعتنى به

نزار حمَّادي

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

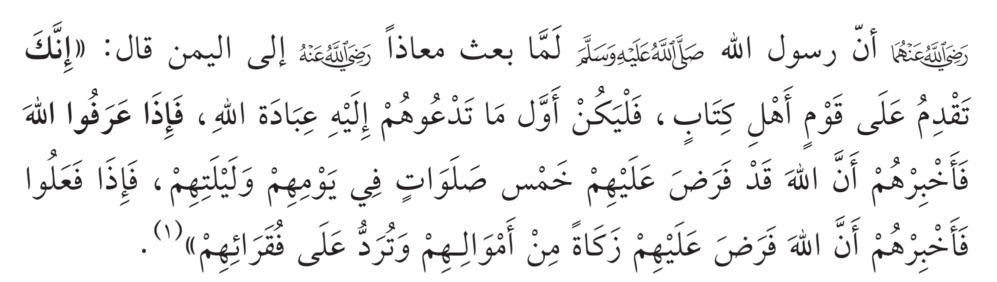
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعد، فإن الله تعالى قد فضّل الإنسان بالنطق والبيان، وخصَّه العقل والعرفان، وأمره على لسان رسله بالنظر العقلي في الأكوان، ليتوصل بذلك إلى معرفة وجوب وجود إله واحد ملِك ديّان، متصفٍ بجميع صفات الكمال، ومنزَّهٍ عن سائر سمات النقصان، مرسِلٍ للرسل على جهة الفضل والامتنان، ومشرِّع لجميع الأحكام التي بها تستقيم حياة الإنسان.

ولن تتم للإنسان استفادة من تلك الأحكام التي نيطت بها مصالحه العاجلة والآجلة إلا بإتقان معرفة الله ﷻ بأسماءه الحسنى وصفاته العلى معرفةً صحيحة مطابقة للواقع على قدر الطاقة البشرية، ثم الجري على مقتضاها عملاً وحالًا، ولذا كان أوّل الواجبات الشرعية ـ بين العبد وربِّه ـ تحصيلُ القدر الضروري من معرفته ﷻ؛ فإنه لا يتأتى الإتيانُ بشي من المأمورات امتثالاً ولا الانكفاف عن شيء من المنهيات انزجارًا إلا بعد معرفة الآمر الناهي، وجميع أعمال الطاعات لا يصح التقرب بها إلى الله تعالى إلا بعد تحصيل تلك المعرفة والتصديق بها والإذعان لها، فهي أصل الدين وركنه الركين.

وعلى هذا وردت الدعوة من الرسول ﷺ، فعن ابن عباس





رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بعث معاذاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن قال: «**إِنَّكَ** تَقْدِمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةَ اللهِ، **فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ** فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ»(1).

ففي قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ فَأَخْبِرْهُمْ» دليل على أنّ التكاليف مشروطة بتحصيل تلك معرفة الله تعالى بحيث تكون شرطاً في صحة سائر الأعمال، ولا شك في أن الشرط مقدّم على المشروط، فمعرفة الله تعالى بهذا الاعتبار مقدّمة على جميع أعمال الطاعات، ولذا كانت آكد الواجبات وأهم المهمات.

وقد بين العلماء المقصود بهذه المعرفة الواجبة شرعاً، ولهم فيها تعريفات متنوعة، وملخصها أنها الاعتقاد الجازم المطابق للواقع في عقائد الدين عن دليل ولو كان ذلك الدليل جمليا، ويقال أيضا: إنها معرفة ما يجب لله تعالى من صفات الكمال، وما يستحيل في حقه من صفات النقص والزوال، وما يجوز في حقه من الأفعال، معرفةً مصحوبة بالقبول والإذعان لها والاستعداد للعمل بمقتضاها.

ولهذه المعرفة آثار إيجابية كبيرة على سلوك الإنسان وظاهراً وباطناً، وقد أشار إلى بعضها أحد كبار العلماء وهو شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام الشافعي الأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «اعلم أنّ معرفة الذات والصفات مثمرة لجميع الخيرات العاجلة والآجلة، ومعرفة كل صفة من الصفات تُثمِر حالا عليّة،

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله.

وأقوالا سنية، وأفعالا رضية، ومراتب دنيوية، ودرجات أخروية، فمَثَلُ معرفة الذات والصفات ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا﴾ وهو معرفة الذات ﴿ثَابِتٌ﴾ بالحجة والبرهان، ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وهو معرفة الصفات ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ مجداً وشرفاً ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ من الأحوال والأقوال والأعمال ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[1] وهو خالقها؛ إذ لا يحصل شيء من ثمارها إلا بإذنه وتوفيقه، منبت هذه الشجرة القلبُ الذي إذا صلح بالمعرفة والأحوال صلح الجسد كله في الحال بالأقوال والأعمال، وفي المآل بنعيم الجنان ورضوان ذي الجلال؛ وإذا فسد بالغي والضلال فسد الجسد كله في العاجل بالمعاصي والإهمال، وفي العاجل بعذاب النار وغضب الجبار.

من فقد فرعا من فروع هذه الشجرة فقَدَ ثمراته في الحال والمآل، فطوبى لمن غرس هذه الشجرة بالنظر، وتعهّدها بالتقوى، وحرسها بالاستقامة، ونفى عنها شعث المخالفة، وصانها من رياح الهوى، وخاف عليها من صواعق الشك وبوائق الشرك وجوائح سوء الخاتمة؛ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩][2].

ولعلماء أهل السنة والجماعة عناية خاصة بهذا العلم المتضمن لقواعد معرفة الله تعالى بأصولها وفروعها العلمية وآثارها القلبية ونتائجها العمَلية، ولهم فيه مصنفات متنوعة بين نظم ونثر ومطول ومختصر، ومن بينها هذه القصيدة اللطيفة المسماة بـ«**الكوكب الوقاد في صحيح الاعتقاد**» وشرحها المسمّى بالاقتصاد.

---

(١) شجرة الأحوال، ص٦٤، نشر دار الفكر.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٢٤، ٢٥

أما صاحب القصيدة فهو إمام جليل من أئمة أهل السنة والجماعة، هو الفقيه الإمام العالم العامل العلامة الصدر الكامل سيد العلماء وقدوة الأدباء أوحد عصره وفريد دهره شيخ الإسلام والمسلمين وبقية السلف الصالحين: عَلَمُ الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي(١) المولود سنة (٥٥٩هـ) والمتوفى سنة (٦٤٢ هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

حفلت كتب التراجم بالثناء عليه والإشادة به وذكر علومه ومشايخه وتلاميذه، نورد منها كلام الحافظ الذهبي في التعريف به إذ قال: «كان إماماً كاملاً، ومقرئاً محققاً، ونحوياً علامةً، مع بصره بمذهب الشافعي، ومعرفته بالأصول، وإتقانه للغة، وبراعته في التفسير، وإحكامه لضروب الأدب، وفصاحته بالشعر، وطول باعه في الإنشاء، مع الدين والمروءة والتواضع واطراح التكلف، وحسن الأخلاق، ووفور الحرمة، وظهور الجلالة، وكثرة التصانيف، وقد كان من أفراد العالم وأذكياء بني آدم»(٢).

وأما صاحب الشرح فهو الشيخ العلامة المحدث المفسّر عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، شهرته وشهرة مصنفاته التي فاتت الخمسمائة تغني عن الإطالة في التعريف، وأيضا فإنه كتب لنفسه ترجمة في كتابه «حسن المحاضرة»(٣) أبان فيها عن نشأته العلمية ومشايخه وعلومه، ومن جملة ما جاء فيها قوله: «رُزِقتُ التبحُّرَ في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبديع». ولد سنة (٨٤٩ هـ)، وتوفي (٩١١ هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) نسبة إلى «سخا» وهي بلدة من محافظة الغربية بمصر

(٢) معرفة كبار القراء، (ج٣/ص١٢٤٧) تحقيق د. طيار آلتي قولاج، استانبول ١٤١٦هـ

(٣) ص ٣٣٥ طبعة الحلبي

إذن بين أيدنا الآن كتاب يتضمن متناً في العقائد وشرحاً له لإمامين كبيرين من أئمة أهل السنة والجماعة، تتفق جميع المصادر المترجمة لهما وتشهد آثارُهما على متانة دينهما وجلالة شأنهما في العلوم، ولن نتطرق تفصيلا لذكر ما تركاه لنا من الكتب وما حوته من النفائس والعلوم، لكننا سنحاول في عجالة الإشارة لمجمل مضامين هذه القصيدة شرحها، وبعض القضايا المعالجة فيهما، خصوصا في مبحث الصفات الإلّهية.

أما قصيدة «الكوكب الوقاد في صحيح الاعتقاد» فيبدو من طالعا أنّ الإمام عَلَم الدين السخاوي قد صنفها إجابة لسائل سأله عما يجب على المسلم أن يربط قلبَه عليه من عقائد الدين، وما به يصح عمله ويستقيم حاله، فأجاب بجواب جامع لكثير من المعاني نظم، فيه جواب النبي ﷺ للصحابي الذي سأله بقوله: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحداً بعدك، فقال ﷺ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ**»(١)، ولا شك أنه من جوامع الكَلِم الذي أوتيه نبينا ﷺ والذي به يختصر المعاني الجليلة الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، ولذا بعدما أجاب الإمام السخاوي بقوله:

قُلْ مَا إِلَهَ الخَلْقِ إِلَّا اللهُ ... ثُمَّ اسْتَقِمْ فَفِيهِمَا رِضَاهُ

شرع في تفصيل مضامين هذا الجواب الإجمالي، فذكر بعض متعلَّقات قول المسلم «لا إله إلا الله»، فبدأ بذكر التنزيهات اقتداء بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ فقد قدّم ﷻ سلب صفات النقص عنه تعالى قبل إثبات صفات الكمال له، وذلك ليكون إثبات المؤمن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام.

لكمالات الله تعالى إثباتاً منزَّهاً عن لوثة التجسيم والتشبيه من كل الجهات.

أما الكمالات التي يجب إثباتها لله ﷻ وشهد العقل والنقل بها شهادة قطعية فهي الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، مع أزلية اتصاف الله تعالى بها.

فهذه أمهات العقائد في باب الإلهيات، ذكرها الإمام السخاوي في أول قصيدته، وشرحها العلامة السيوطي باختصار بين فيه تعريف كل صفة من صفات الكمال الإلهي ودليل إثباتها لله ﷻ من القرآن الكريم، ومقصوده بذلك بيان تعاضد النظر العقلي الصحيح مع النص القرآني القطعي الدلالة وتوافقهما في إثبات الكمالات لله تعالى وتنزيهه عن النقائص، فإن تلك الصفات قد أرشدت الصنعةُ إلى وجوب اتصاف الصانع ﷻ بها، ثم ورد الدليل النقلي بإثباتها ليحصل بذلك التطابق التام بين النظر والخبر، وتتبين المحجة وتقوم الحجة.

وبعد ذلك أشار الإمام السخاوي إلى قاعدة من قواعد عقائد أهل السنة والجماعة وهي أن الله تعالى لم يزل متصفاً بتلك الصفات الوجودية الكمالية ولا يزال، وأنه تعالى يستحيل أن يتصف بالصفات المحدَثة بعد العدم كما هو حال سائر المخلوقات، فقال:

وَلَـــمْ يَـــزَلْ إِلَـــهُنَا مَوْصُـــوفاَ بِمَـــا ذَكَـــرْتُ وَبِـــهِ مَعْرُوفـــاَ

فهو تعالى قبل أن يخلق الخلق كان متصفاً بالعلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام، وفي ضمن ذلك ردٌّ على نفاة الصفات الوجودية أصلا كالمعتزلة والشيعة، وردّ على المجسِّمة الذين يقولون بأنه

تعالى تحدُث له صفات وأفعال تقوم بذاته، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ووجه الرد على الأوئل هو ببيان بطلان شبهة تعدّد القدماء التي أوجبت لهم في أذهانهم نفي الصفات، فالقديم الذي لا أول لوجوده ذات واحدٌ هو الله ﷻ المتصف بصفات الكمال أزَلا، والمحذور هو تعدُّد الذوات القديمة، وهذا غير وارد على معتقد أهل السنة والجماعة.

ووجه الرد على المجسِّمة أن جميع صفات الله القائمة بذاته ﷻ صفات كمال، فيجب أن يكون كل فرد منها ملازماً لذاته أزلا وأبداً، إذ لو خلا عن فرد لحظة لزم اتصافُه بضده الذي هو نقصٌ لأنه لا واسطة بين الكمال والنقص، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وأيضا فإنه قد تقرر أن المتصف بالصفات والأفعال الوجودية الحادثة يجب عقلًا حدوثُه، ولذا قال الإمام ابن جرير الطبري: «مَا لَمْ يَخْلُ مِنَ الحَدَثِ لَا شَكَّ أَنَّهُ مُحدَثٌ»[1]، وقال الشيخ ابن بطة العكبري: «كُلُّ مَنْ حَدَثَتْ صِفَاتُهُ فَمُحْدَثٌ ذَاتُهُ، وَمَنْ حَدَثَ ذَاتُهُ وَصِفَتُهُ فَإِلَى فَنَاءٍ حيَاتُه، وتَعالَى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً»[2].

فثبت بهذا بطلان مذهب المجسمة القائلين بأن الله تعالى يتصف بالصفات المحدَثة، وأنه تقوم به أفعال حادثة، وجعلوا القرآن القائم بذات الله من ذلك المحدَث.

ثم تطرق الإمام السخاوي إلى الكلام على مسألة كانت مثار جدال

---

(١) التاريخ (ج١/ص٢٨).

(٢) الإبانة (ج٢/ص١٨٣).

وخلاف كبير بين طوائف المسلمين، وهي صفة الكلام الإلهي التي افترق فيها الفرق بين قول المعتزلة والشيعة ـ النافين أصلا لقيام الصفات بذات الله تعالى ـ بأنّ القرآن مُحدَث مخلوق في جسم، به كان الله تعالى آمراً ناهياً، وقول المجسّمة بأنّ القرآن صفة محدَثةٌ في ذات الله تعالى بحيث لم يقم بذاته تعالى قرآن أزلًا، وإنما هو أمرٌ محدَث قام به فيما لا يزال، وبهذا صرح ابن تيمية في فتاويه حيث قال عن القرآن الذي هو من صفات الله تعالى: «هُوَ حَادِثٌ فِي ذَاتِهِ، وهل يقال: أحدَثَهُ في ذاته؟ على قولين: أصحُّهما أنه يقال ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢][1].

وأما القول الحق فهو الذي عليه أهل السنة والجماعة من أنّ القرآن كلام الله تعالى وصفة من صفاته ذاته التي لم يزل تعالى ولا يزال موصوفاً بها؛ ولذا قال الإمام أحمد بن حنبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القُرْآنُ مِنْ عِلْمِ اللهِ، وعِلْمُ الله غَيْرُ مَخْلُوقٍ»[2]، يريد بذلك قياس صفة الكلام على صفة العلم، فكما استحال أن يكون عِلْمُ الله تعالى مخلوقاً أو محدَثاً استحالَ أن يكون القرآن القائم بذاته عَزَّ وَجَلَّ مخلوقاً أو محدثاً، وقال الإمام ابن جرير الطبري في وصف الله تعالى: «هُوَ المتكلِّمُ الَّذِي لا يجوز عليه السُّكوتُ»[3]، وهذا نقيض قول المجسِّمة بأن الله يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء، وقال أيضا: «القُرْآنُ: الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللهِ ـ تَعَالَى ذِكْرُهُ ـ لَمْ يَزَلْ صِفَةً قَبْلَ كَوْنِ الخَلْقِ جَمِيعًا، وَلَا يَزَالُ بَعْدَ

(١) مجموع الفتاوى (ج٦/ص٣٢٨) جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية – ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٢) نقله الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة، (ج٢/ص٣٩١).

(٣) راجع التبصير في معالم الدين (ص ١٢٨).



فَنَائِهِمْ[١]، وقال الإمام البيهقي: «القُرْآنُ كَلَامُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَكَلَامُ اللهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ مَخْلُوقاً وَلَا مُحْدَثاً وَلَا حَادِثاً»[٢].

فهذا هو قول أهل السنة عموما والأشاعرة منهم خصوصا في القرآن وصفة الكلام، وهو الذي قرره الإمام السخاوي، ثم ردّ على المجسمة الذين يتمسكون بما يؤثر عن بعض السلف من قولهم عن القرآن: «منه بدا وإليه يعود»، فيحملون هذه العبارة على معنى أن القرآن حدَث من الله وفي ذات الله بعد العدم، بينما تفسر هذه العبارة عند أهل السنة على معاني صحيحة منها أنه تعالى به تكلَّم، ولا شك أن الله تعالى متكلِّمٌ بالقرآن أزلًا لأن مرجعه إلى صفة الكلام الأزلي، وهو تعالى لم يزل متصفا بالكلام الأزلي، فلم يزل القرآن قائما بذاته عَزَّوَجَلَّ كما نص على ذلك الإمام الطبري في النقل السابق، وأيضا تحمل هذه العبارة كما أشار إليه الإمام السخاوي والإمام العز بن عبد السلام فيما نقل عنه العلامة السيوطي في هذا الشرح على أن تنزيل القرآن بدأ من الله عَزَّوَجَلَّ على رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحدَثَ عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإليه يعود تأويلُه، وذلك لا يؤدي بحال من الأحوال إلى القول بحدوث القرآن الذي هو صفة ذات الله تعالى.

ثم أشار الإمام السخاوي إلى قضية عقدية مهمة متعلقة بفهم بعض نصوص الصفات التي تعتبر من المتشابه، فإن الكتاب الكريم كما بين الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، ولما تضمن

(١) راجع التبصير في معالم الدين (ص ١٥٢).

(٢) اعتقاد أهل السنة، (ج١/ص٩٥).

الكتاب آيات في وصف الله تعالى كان من الضروري وفق ذلك التقسيم أن يكون ثمة آيات دالة على بعض الصفات دلالة قطعية لرجوعها إلى المحكمات الواضحة الدلالة على المعنى المراد بحيث لا تحتمل غيره أو تكاد، كالآيات الدالة على صفة العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام، وآيات دالة عليها دلالة ظنية بحكم كونها متشابهة تحتمل عدة معاني، والخلاف في الأولى يكاد يكون معدوماً، وأمّا المتشابهات فقد وقع فيها خلاف بين أهل السنة من جهة والمجسمة من جهة أخرى، فأهل السنة نظروا في الآيات المتشابهات فوجدوها تحتمل بحسب لغة العرب جملة من المعاني، منها معاني مقطوع باستحالتها في حق الله ﷻ لتأديتها إلى وصف الله تعالى بالنقص، فقطعوا بأن تلك المحامل غير مرادة لله تعالى، ثم نظروا في باقي الاحتملات التي يصح وصف الله تعالى بها، فمنهم من توقف عن تعيين محمل من تلك المحامل الصحيحة لأنه لم يقف على قرينة قطعية تعين المراد لله ﷻ، ومنهم من عيّن بقرائن وإن كانت غير قطعية ولكنها ظنية راجحة وفقاً للغة العرب التي نزل القرآن بها، فالذين توقفوا في التعيين هم أهل التفويض، والذي عيّنوا المراد لله هم أهل التأويل، وكلاهما على هدى من الله تعالى لاشتراكهما في القطع بتنزيه الله ﷻ عن المحامل التي تؤدي إلى النقص.

وأمّا المجسمة فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، بل حملوا تلك الآيات المتشابهات على المحامل التي تؤدي إلى وصف الله تعالى بالجسمية ولوازمها، كحملهم قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] على أنه ـ تعالى عن قولهم! ـ جلس وقعد واستقرّ مماسةً على الجسم المسمى بالعرش، ولا شك أن الاستواء بحسب لغة العرب يحتمل عدة معاني، منها

الجلوس والقعود والاستقرار بالمماسة، ولكنها قطعاً محامل غير مرادة لله تعالى بقرينتين قطعيتي الدلالة إحداهما نقلية وهي قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١]، والثانية عقلية وهي وجوب حدوث جميع الأجسام المتحيزة المحدودة وافتقارها إلى خالق منزَّه عن الجسمية ولوازمهما وإلا لزمه ما لزمها.

لذا قطع أئمة أهل السنة ببطلان تلك المحامل في حق الله عَزَّ وَجَلَّ، فقال الإمام الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس معنى قول المسلمين: «إن الله على العرش» هو أنه تعالى مماسّ له، أو متمكن فيه، أو متحيّز في جهة من جهاته؛ لأنه بائن من جميع خلقه[١]، وإنما هو خبرٌ جاء به التوقيف، فقلنا به، ونفينا عنه التكييف؛ إذ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][٢]، وقال الإمام البيهقي: القديم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عالٍ على عرشه، لا قاعد، ولا قائم، ولا مماس، ولا مباين مباينة الذات التي هي بمعنى الاعتزال أو التباعد؛ لأن المماسة والمباينة ـ التي ضدها القيام والقعود ـ من أوصاف الأجسام، والله عَزَّ وَجَلَّ أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، فلا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام تبارك وتعالى»[٣].

ويحتمل الاستواء معاني أخرى صحيحة لائقة بالله عَزَّ وَجَلَّ، كالعلوِّ والارتفاعِ بالمجد والشرف، لا بالجهة الحسية والتحيز والجسمية، وكالاستعلاء بالقدرة،

---

(١) يعني ببائن: مخالف، ولا شك أن الله تعالى مخالف لجميع خلقه بالذات والصفات والأفعال.

(٢) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، ص١٤٧٤. ط١. ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م جامعة أم القرى.

(٣) الأسماء والصفات ج٢/ص٣٠٨.

وكالاستيلاء بالقهر والغلبة، وهي معاني مستعملة في لغة العرب كمدلولات للفظ الاستواء، لكن الدليل القطعي على تعيين واحد من تلك العاني الصحيحة بحيث يكون هو عين مراد الله تعالى فمفقود، ولذا مِن علماء أهل السنة من يتوقف في التعيين بعد القطع بنفي المحامل الباطلة، وعلى هذا كثير من السلف، وفي ذلك يقول الإمام القرطبي: «ومما يعلم استحالته: كون العرش حاملاً لله تعالى، وأنّ الله تعالى مستقرٌّ عليه كاستقرار الأجسام؛ إذ لو كان محمولا لكان محتاجاً فقيراً لِـمَا يحمِلُه، وذلك ينافي وصف الإلّهية؛ إذ أخص أوصاف الإله الاستغناءُ المطلق، ولو كان ذلك للزم كونه جسما مقدَّراً، ويلزم كونه حادثاً على ما سبق، فإنْ قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟ قيل: له محامل واضحة، وتأويلات صحيحة، غير أنّ الشرع لم يعين لنا محملاً من تلك المحامل، فيُتوَقَّفُ في التعيين، ويُسلَك مسلكُ السلف الصالح في التسليم[(١)].

ومثل كلام الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قول الإمام السنوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح الوسطى: «مذهب السلف: الوقفُ في تعيين تأويلها، وقالوا: نقطع بأنّ ظاهرها المستحيل[(٢)] غير مراد، ونفوّض بعد ذلك عين المراد منها إلى الله تعالى؛

---

(١) شرح العقيدة الوسطى، ص١٤١

(٢) وهذا التقييد للظاهر بالمستحيل غاية في الدقة من الإمام السنوسي لأن أهل السنة إنما ينزهون الله تعالى عن الظواهر التي تؤدي إلى التشبيه والتجسيم، وهذا ما عناه الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: «**والظاهرُ المتبادر إلى أذهان المشبهين منفيٌّ عن الله؛ فإنّ الله لا يشبهِهُ شيء من خلقه**» (تفسير بن كثير، ج٦/٣١٩) وهذا الظاهر المتبادر الذي نفاه ابن كثير هو الجلوس وما في معناه من الاستقرار الحسي والتحديد الذي يعتقده المجسّمة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، إذ ليس ثمة معنى آخر فاسد متبادر للأذهان.



لصحة حمل اللفظ على محامل، ولم يعيّن الشرعُ ما المراد منها، فتعيينُ بعضها بغير نقل عن صاحب الشرع تسوّر على الغيب بغير دليل. وهذا القول هو أحسن الأقوال وأسلمها[1].

ويفهم من كلام الإمامين بوضوح أنّ التفويض الذي يقول به السلف الصالح ليس فيه تجهيل لهم رضوان الله تعالى كما يدعي المجسِّمة الذين يقولون بأنّ التفويض يعني أن الله تعالى خاطبنا بما لا يُفهَم أصلًا، وهذه من مغالطاتهم، بل أهل التفويض من السلف الصالح ومن تبعهم من الخلف كانوا عالـمين بجميع محامل ومعاني الكلام، وعالِمين بما يصح إثباتُه في حق الله تعالى من المعاني المحتملة وما لا يَصِحُّ، وكانوا يقطعون بطرح المحامل والمعاني الفاسدة المقتضية للتجسيم والتشبيه، ويتوقفون في تعيين أحد المحامل والمعاني الصحيحة على سبيل القطع بأنها مرادة لله تعالى بسبب فَقْدِهم للدليل القطعي على التعيين كما أشرنا.

ومن أهل السنة من يعيّن معنى من المعاني الصحيحة المحتملة بناء على قرائن وأدلة ولو بالظن الراجح، كما فعل العلامة السيوطي في هذا الشرح فحمَل الاستواءَ الوارد في الآية المذكورة على الاستيلاء، فمعنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أن الله ﷻ استولى عليه ودبّره، بحيث لا يتحرَّكُ العرشُ ولا يسكن ولا يختصُّ بالحيِّزِ المعيَّن الذي يختص به ولا يتصف بصفة عموماً إلا بإرادة الله ﷻ وخَلْقِه ذلك فيه، ووجه اختصاص العرش بالذكر ـ وإن كانت العوالِـم كلها كذلك تُساويه فيما ذُكر من عظيم الاحتياج إلى الباري تعالى وعدم استغنائها عنه لحظة ـ أنه لَـمَّا كان هو أعظم

(١) المفهم في شرح صحيح مسلم، ج٦/ص٦٧٠، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٧هـ.

المخلوقات، وكانت نسبة جميعها إليه كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، ربّما يُتوهَّم أنّ له من القوة والرِّفعة ما يستغني به في تدبير نفسه، فنبَّه تعالى على أنّ العرش على ما هو عليه من عِظم القوة وجلائل الصفات مقهورٌ محتاج إلى الله ﷻ غاية الاحتياج، ولا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، ولا يدبّر أمره جملة وتفصيلا، وإذا ثبت في حقه ذلك ثبت في حق غيره بالأحرى(١).

وهذا المعنى لا وجه لاستبعاده لا لغةً ولا شرعاً، وما يقال من أنّ الاستيلاء يكون مسبوقا بالمغالَبة، فليس بشيء لأن ذلك وإن سُلِّم في الشاهد في حق من تجوز عليه المغالبة، فلا يُسلَّم في حق الله تعالى لأنه لا يصح أن يكون لِمراده منازِعٌ ولا لقدرتِه مدافع، وإنما المراد بالاستيلاء غايتُه وهي القهر التام للعرش وما حوى إلى تخوم الثرى، بلا سَبْقِ منازعة ولا مغالبة أصلا.

فهذان المسلكان هما المشهوران لأهل السنة والجماعة في التعامل مع مشكلات آيات الصفات، وفي ذلك يقول الإمام الحافظ محيي الدين النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين:

ـ **أحدهما**: وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها، بل يقولون: يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته، **مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأنه منزه عن التجسم والانتقال والتحيّز في جهة وعن سائر صفات المخلوق**، وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين، واختاره جماعة من محققيهم، وهو أسلم.

ـ **والقول الثاني**: وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأول على ما يليق

(١) راجع شرح العقيدة الوسطى للإمام السنوسي، ص ١٤٢، ١٤٣

بها على حسب مواقعها، وإنما يسوغ التأويل لمن كان من أهله بأن يكون عارفا بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع، ذا رياضة في العلم[1].

ومثل كلام الإمام النووي كلام الإمام الحافظ أحمد بن عبد الرحيم بن العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأهل العلم في آيات الصفات وأحاديث الصفات قولين مشهورين:

ـ **أحدهما**: وهو مذهب السلف، أنه لا يتكلم في معناها، بل يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد معنى يليق بجلال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع اعتقادنا الجازم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس كمثله شيء وأنه منزَّه عن الأجسام والانتقال والتحيز في جهةٍ، وعن سائر صفات المخلوقين؛ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقد ذهب إلى هذا جماعة من المتكلمين أيضاً[2]، وهو أسلم وأقل خطراً.

ـ **والقول الثاني**: وهو مذهب أكثر المتكلمين أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها، بحيث تُصرَفُ عن ظواهرها للأدلة القائمة على ذلك.

وإذا قلنا بهذا المذهب الثاني فإنما يسوغ تأويلُها لمن كان من أهل ذلك بأن يكون عارفا بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع، ذا رياضة في العلم، ومن كان بهذا المحل في العلم فلا يخشى عليه الوقوع في الآفات والشُّبَه؛ لتمكُّنِه من معرفة قواعد الشرع وخبرته بما يجب لله تعالى ويستحيل عليه.

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج٣/ص١٩

(٢) منهم الإمام تقي الدين المقترح في شرح الإرشاد، إذ قال: الذي نحققه نحن أنه إن بقي احتمال واحد في اللفظ بعد إزالة الظاهر تعيّن حمله عليه، وإن بقي احتمالان فصاعدا لزم الوقفُ، ولم يمكن ترجيح احتمال جائز على احتمال جائز بالطريق المظنون، فإن ذلك معمول به في الأحكام الشرعية، لا في صفات الله تعالى. (ص٢٨٠)

أما من لم يكن بهذه الصفات فليس له الكلام في ذلك والخوض فيه، ومتى فعل ذلك ارتكب أمراً عظيما وتجشم خطبا جسيما، ويجب على أهل العلم منعه من ذلك، فإنه يلحد في آيات الله تعالى من حيث لا يدري، والواجب إمرارها كما جاءت من غير خوض فيها ولا تعقُّلٍ لمعناها(١).

وقريب من هذا أيضا قول شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عقيدته: نَقُولُ فِي الأَلْفَاظِ الـمُشْكَلَةِ الوَارِدَةِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: تَنَزَّهَ اللهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَنُؤْمِنُ بِأَنَّهَا حَقٌّ وَصِدْقٌ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي أَرَادَ حُصُولَهُ وَرَسُولَهُ، مَنْ أَوَّلَ شَيْئاً مِنْهَا فَإِنْ كَانَ تَأْوِيلُهُ قَرِيباً عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ لِسَانُ العَرَبِ وَيُفْهَمُ فِي مُخَاطَبَاتِهِمْ لَـمْ نُنْكِرْهُ عَلَيْهِ وَلَـمْ نُبَدِّعْهُ، وَإِنْ كَانَ تَأْوِيلًا بَعِيداً تَوَقَّفْنَا عَنْ قَبُولِهِ وَاسْتَبْعَدْنَاهُ، وَرَجَعْنَا إِلَى القَاعِدَةِ فِي الإِيمَانِ بِمَعْنَاهُ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ عَلَى الوَجْهِ الَّذِي أُرِيدَ مَعَ التَّنْزِيهِ.

وَمَا كَانَ مَعْنَاهُ مِنْ صِفَةِ الأَلْفَاظِ ظَاهِراً مَفْهُوماً فِي تَخَاطُبِ العَرَبِ قُلْنَا بِهِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] فَنَحْمِلُهُ عَلَى حَقِّ اللهِ وَمَا يَجِبُ لَهُ، أَوْ عَلَى قَرِيبٍ مِنْ هَذَا الـمَعْنَى، وَلَا نَتَوَقَّفُ فِيهِ(٢).

---

(١) والمقصود من هذا أنها كما جاءت مجملة تمر مجملة، مع ضميمة التنزيه المذكور سابقا. وليس المقصود بالإمرار ما يعنيه المجسمة لأنهم يرفضون التنزيه الذي ذكره الإمام الحافظ العراقي قبل هذا وهو التنزيه عن الجسمية ولوازمها، وما ذلك إلا لكونهم مجسمة. راجع الأجوبة المرضية عن الأسئلة المكية (ص ١٤ ـ ٢٦) نشر مكتبة التوعية الإسلامية.

(٢) قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] يقول: على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به، وقصّرت في الدنيا في طاعة=



وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**قَلْبُ الْمُؤْمِنِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ**» نَحْمِلُهُ عَلَى أَنَّ إِرَادَاتِ القَلْبِ وَاعْتِقَادَاتِهِ مُتَصَرَّفَةٌ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَمَا يُوقِعُهُ فِي القُلُوبِ[1]، وَهَكَذَا سَائِرُ الأُمُورِ الظَّاهِرَةِ المَعْنَى المَفْهُومِ عِنْدَ سَامِعِيهَا مِمَّنْ يَفْهَمُ كَلَامَ العَرَبِ.

ولأهل السنة والجماعة مذهب ثالث في المشكلات المتعلقة بالصفات أقل شهرة من المذهبين السابقين، وهو مذهب يبايِنُ كل المبايَنة ما عليه المجسِّمة والمشبهة، وقد أشار الإمام السنوسي إلى هذا المذهب الثالث بقوله في شرح الوسطى: اختلف في أشياء وردت في الشرع مضافة لله تعالى، وهي الاستواء واليد والعين والوجه، **بعد القطع بتنزهه تعالى عن ظواهرها المستحيلة عقلا إجماعا**، فقال الشيخ أبو الحسن الأشعري: إنها أسماء لصفات تقوم بذاته تعالى، زائدة على الصفات الثمانية السابقة، والسبيل إلى إثباتها عنده السمعُ لا العقل، ولهذا تسمى على مذهبه: صفات سمعية، والله تعالى أعلم بحقيقتها.

ثم قال: وأما الشيخ الأشعري فاعتمد في إثبات هذه الصفات ـ أي السمعية ـ على ظواهر من القرآن؛ أمّا الاستواء فاحتج على ثبوته بقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فقال: **الاستواء بمعنى الاستقرار والتمكن**

= الله. ونقل عن مجاهد تفسير قوله تعالى: ﴿فِي جَنْبِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى في أمر الله. وعن السدي بمعنى: ما تركت من أمر الله. (جامع البيان، ج٢٠/ص٢٣٤، ٢٣٥)

(١) قال الحافظ النووي: معنى الحديث أنه سبحانه وتعالى متصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء، لا يمتنع عليه منها شيء ولا يفوته ما أراده، كما لا يمتنع على الإنسان ما كان بين إصبعيه، فخاطب العرب بما كانوا يفهمون ومثله بالمعاني الحسية تأكيدا له في نفوسهم. المنهاج، ج١٦/ص٢٠٤

والجلوس مستحيلٌ عقلًا وإجماعاً، وتأويله بالاستيلاء على العرش بالقدرة يوجب أن لا يكون لتخصيص العرش بذلك فائدة[١] ؛ إذ سائر الممكنات تماثل العرش في ذلك، فوجب أن يحمل الاستواء على صفة تليق به جل وعز، والله تعالى أعلم بحقيقتها[٢].

وبمثل قول الإمام الأشعري ـ في أحد أقواله ـ قال القاضي أبو بكر الباقلاني في «التمهيد» ونقله عنه القاضي عياض بقوله: أما إثبات اليدين لله سبحانه **من غير أن تكون يدي جارحة**، بل صفتين من الصفات قديمة أزلية، فأثبتهما القاضي أبو بكر بن الطيب وغيره من أئمتنا؛ لقوله تعالى: ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص: ٧٥] فأثبت اليدين هنا صفتين قديمتين[٣].

واقتران هذا الإثبات بالتنزيه القطعي عن الجسمية ولوازمها هو البرهان القطعي على مخالفة هذا المذهب لمذاهب المجسِّمة في إثباتهم أعضاء وأبعاضاً لله تعالى عن قولهم علوّاً كبيراً، فإن علامة المجسِّمة هي النفور الشديد من تنزيه الله تعالى عن الجسمية ولوازمها من الحركة والجهة الحسية والحدود والشكل والمقدار وغير ذلك، مُدَّعين أن الشرع لم يأت بالتنزيه عنها، وعلامة أهل السنة ـ باتجاهاتهم الثلاث المذكورة في الصفات ـ التصريح بالتنزيه القطعي عن الجسمية ولوازمها، عِلماً منهم أنّ الشرع قد تضمن ذلك التنزيه، بل وأمر به كما في نحو قوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ**

(١) وهذا ضعيف، فقد أشرنا إلى فائدة تخصيص العرش بالذكر من كلام الإمام السنوسي في شرحه على الوسطى.

(٢) راجع شرح الوسطى ص ١٤١، ١٤٢

(٣) إكمال المعلم، ج٨/ص٢٦١

﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١] ومن ذلك قول الحافظ الإمام أبو عمر بن عبد البر (ت٤٦٣هـ) في «التمهيد» في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢]: **ليس مجيئه حركةً ولا زوالًا ولا انتقالًا، لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجائي جسماً أو جوهراً، فلما ثبتَ أنه تعالى ليس بجسم ولا جوهر لم يجب أن يكون مجيئُه حركةً ولا نقلةً»**[١]، وقول الإمام القاضي عبد الوهاب البغدادي في شرح عقيدة الرسالة: «التنقُّلُ والتحوُّلُ وإشغالُ الحيِّزِ والافتقار إلى الأماكن يَؤول إلى التجسيم، وإلى قِدَم الأجسام، وهذا كفرٌ عند كافة أهل الإسلام[٢]، وقول الإمام الفقيه القاضي محمد بن رشد الجد رحمه الله في «المقدمات»: ولا يجوز عليه تعالى ما يجوز على الجواهر والأجسام من الحركة والسكون والزوال والانتقال والتغير والمنافع والمضار، ولا تحويه الأمكنة ولا تحيط به الأزمة[٣]، وقول الإمام الجليل الحافظ محمد بن أبي بكر القرطبي (ت٦٧١) في كتابه «الأسنى في شرح الأسماء الحسنى»: لو كان الباري تعالى مقدَّراً بقَدْرٍ، مُصوَّراً بصورَةٍ، متناهياً بحدٍّ ونهاية، مختصّاً بجهة، متغيِّراً بصفة حادثة في ذاته لكان مُحدَثاً مُختَصّاً، واختصاصُه بما اختص به من مقدار وشكل يستدعي مخصِّصاً، ولو استدعى مخصِّصاً لكان مفتقراً حادِثاً، وإذا بطل هذا صحّ أنه تعالى بلا حَدٍّ ولا نهايةٍ، وأنه سبحانه قائم بنفسه على معنى أنه مُستغنٍ عن مكانٍ يُقِلُّهُ أو جسم يَحلُّه أو شيء يُمسِكُه أو غيرٍ يستعينُ

---

(١) التمهيد، ضمن موسوعة شروح الموطأ، (ج٧/ص ٢٣٤) نشر مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م

(٢) شرح عقيدة الإمام ابن أبي زيد القيرواني (ص١٧)

(٣) المقدمات الممهدات، (ج١/ص٢٣)

به، ولا تتغيَّرُ أوصافُه في نفسه بفِعْلِه وتَرْكِه[1].

ونصوص أئمة أهل السنة في التنزيه التفصيلي لا تحصى كثرة، فسقط قول المجسمة بأنّ ذلك التنزيه بدعة لم يأت به الشرع، وما قالوا ذلك إلا تلبيساً على العوام لتمرير وصف الله بصفات الأجسام، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فالملاحظ إذن أن القاسم القطعي المشترك بين اتجاهات أهل السنة الثلاث في مشكلات الصفات هو تنزيه الله تعالى عما يقتضي النقص عموماً، وعن الجسمية ولوازمها خصوصاً، ولا شك أنهم على هدى من الله لعدم اختلافهم فيما لا يجوز الاختلاف فيه، ولذا لا تجدهم يقدحون في بعضهم البعض، بل دائرة أهل السنة تجمعهم وتوحد كلمتهم، ولهذا قال الإمام علم الدين السخاوي مبينا الضابط الذي يكون به المسلم داخلا في دائرة أهل السنة والجماعة في باب الصفات:

فَلَا تَكُنْ فَدْماً غَلِيظاً فَظّاً إِذَا سَمِعْتَ فِي الحَدِيثِ لَفْظاً

يُوهِمُكَ التَّجْسِيمَ وَالتَّشْبِيهَا فَاللهُ قَدْ عَلَّمَكَ التَّنْزِيهَا

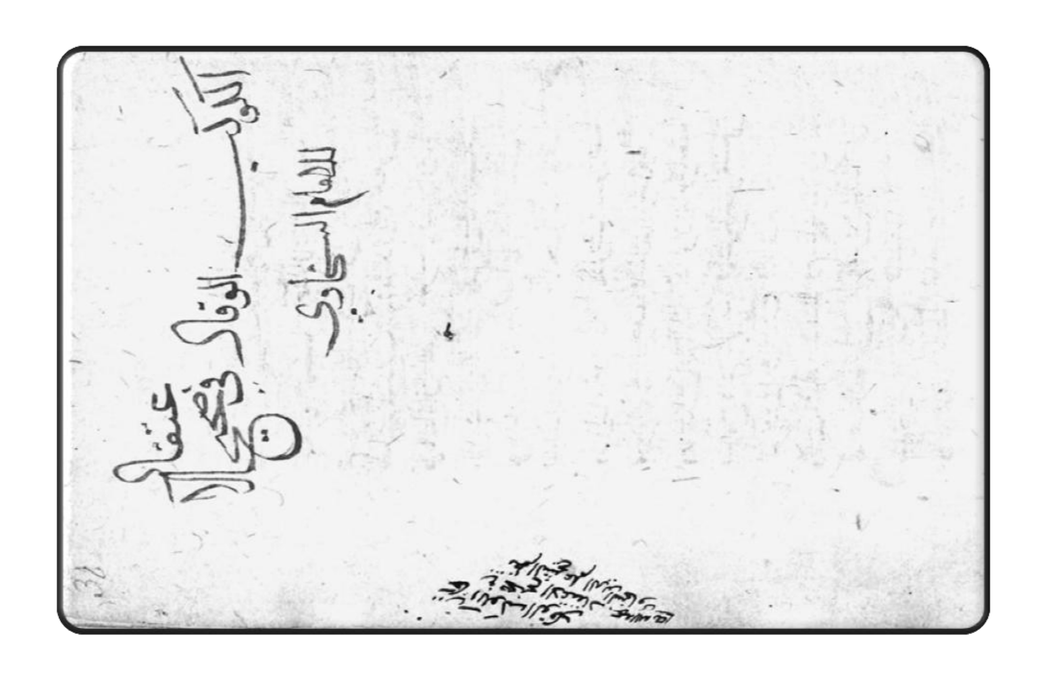
وهذه نصيحة موجهة بالأساس لِمن اغتر بمذهب المجسّمة فحمل مشكلات آيات الصفات على محامل باطلة، ثم صار يُخطِّئ أئمة الأمة الإسلامية كالذين تقدم ذكرهم رضي الله عنهم ويصفهم بالتعطيل والتجهيل، وهؤلاء ينطبق عليهم وصف الإمام السخاوي تماما، فالفَدْمُ من الناس كما في لسان العرب: هو العَيِيُّ عن الحجة مع قلة فَهْمٍ، وهو أيضاً الغليظ السمين الأحمق

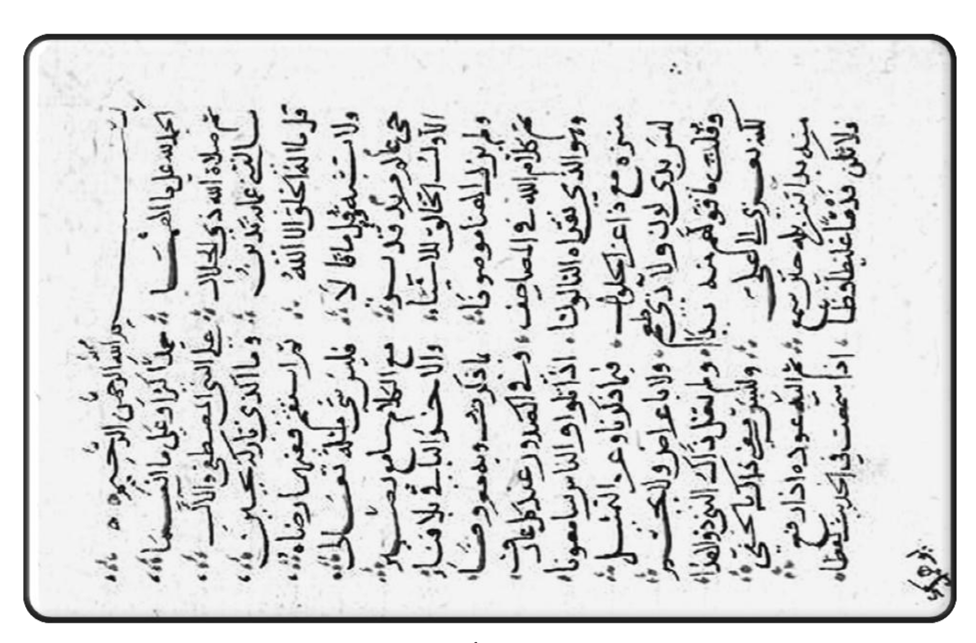
(١) الأسنى ج٢/ص٢١، وراجع أيضا ج٢/ص١٤٣، طبعة دار الصحابة للتراث بطنطا.

الجافي، ولا شك في انطباق هذه النعوت المشينة على من خالف هَدْيَ أولئك الأئمة الأحبار وادعى بفَهْمِهِ السقيم أنه وحده على صراط مستقيم.

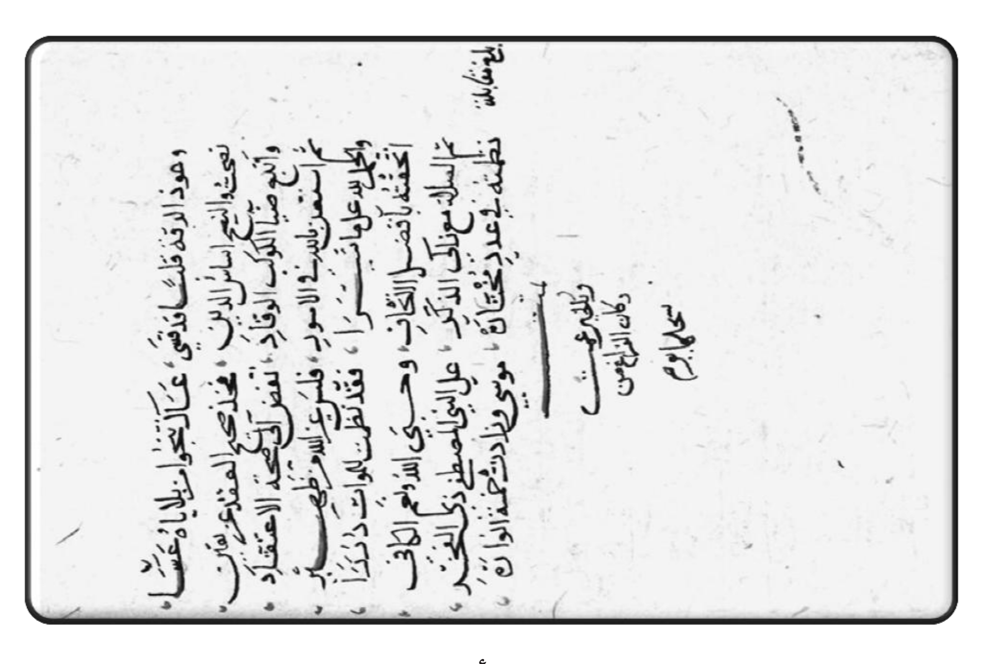
هذا في عجالة بعض المضامين المهمة في قصيدة الإمام السخاوي وشرحها، ولا شك في احتوائها على مباحث أخرى شريفة في باب العقائد والسلوك مذكورة بأدلتها من القرآن العظيم والسنة النبوية باستدلالات راقية، بقي أن أشير إلى النسخ المعتمدة في العناية بهذا العمل، أمّا متن الكوكب الوقاد فقد اعتمدت إضافة لما تضمنه الشرح على نسخة مكتبة جامعة لايبزج (Leipzig) الألمانية، تقع في مجموع ما بين الورقة ٣٨ والورقة ٤١، خطها مشرقي، ومزيتها أنها تتضمن أبيات غير موجودة في نسخ الشرح، وبها يكتمل عدد الأبيات المنصوص عليه وهو (٧٥).

وأما الشرح فقد اعتمدت على نسخة المكتبة الوطنية بتونس، برقم ١٠٠٣٩، تقع في ٨ ورقات، خطها مشرقي، ولم يذكر فيها اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ، كما استعنت أيضا بالشرح المطبوع في مصر بتحقيق عبد الفتاح أبو سنة، مجمع البحوث الإسلامية، مطبعة حسان، سنة ١٩٨٧م.

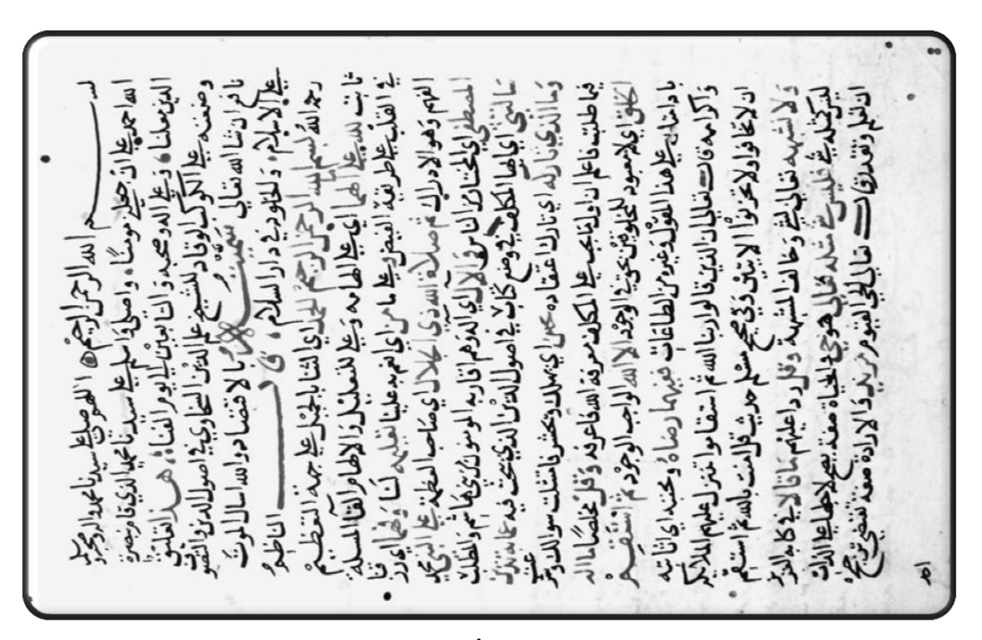




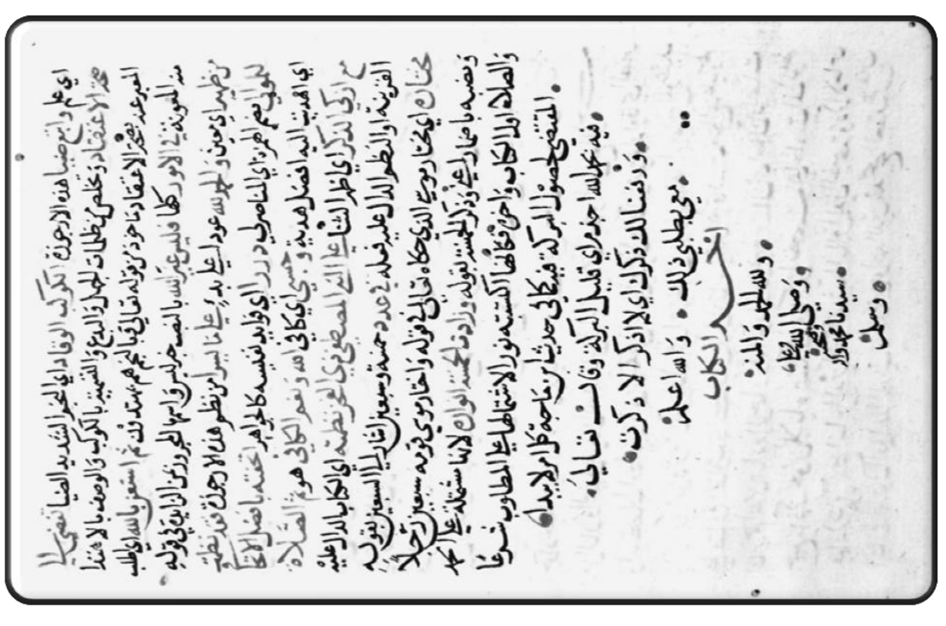
صورة الصفحة الأولى من المتن



صورة الصفحة الأخيرة من المتن



صورة الصفحة الأولى من الشرح



صورة الصفحة الأخيرة من الشرح

الكَوْكَبُ الوَقَّادُ فِي صَحِيحِ الاعْتِقَادِ

للإمام علم الدين السخاوي المصري الشافعي الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ

الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَلْهَمَا ... وَمَنَّ بِتَعْلِيمِهِ وَفَهَّمَا

ثُمَّ صَلَاةُ اللهِ ذِي الجَلَالِ ... عَلَى النَّبِيِّ المُصْطَفَى وَالآلِ

سَأَلْتَنِي عَمَّا بِهِ تَدِينْ ... وَمَا الَّذِي تَارِكُهُ يَحِينْ

قُلْ مَا إِلَهَ الخَلْقِ إِلَّا اللهُ ... ثُمَّ اسْتَقِمْ فَفِيهِمَا رِضَاهُ

وَلَا تُشَبِّهْهُ وَقُلْ مَا قَالَا ... فَلَيْسَ شَيْءٌ مِثْلُهُ تَعَالَى

حَيٌّ مُرِيدٌ عَالِمٌ قَدِيرْ ... مَعَ الكَلَامِ سَامِعٌ بَصِيرْ

الأَوَّلُ الخَالِقُ لِلْأَشْيَاء ... وَالآخِرُ البَاقِي بِلَا فَنَاء

وَلَمْ يَزَلْ إِلَهُنَا مَوْصُوفَاَ ... بِمَا ذَكَرْتُ وَبِهِ مَعْرُوفَاَ

ثُمَّ كَلَامُ اللهِ فِي المَصَاحِفِ ... وَفِي الصُّدُورِ عِنْدَ كُلِّ عَارِفِ

وَهْوَ الَّذِي يَقْرَؤُهُ التَّالُونَا ... إِذَا تَلَوْا وَالنَّاسُ سَامِعُونَا

مُنَزَّهٌ مَعْ ذَا عَنِ الحُلُولِ ... كَمَا ذَكَرْتُ وَعَنِ التَّمْثِيلِ

لَيْسَ بِذِي لَوْنٍ وَلَا ذِي طَعْمِ ... وَلَا بِأَعْرَاضٍ وَلَا بِجِسْمِ



وَقُلْتُ مَا قَوْلُهُمْ مِنْهُ بَدَا ... وَلَمْ يَقُلْ ذَاكَ النَّبِيُّ ذُو الهُدَى

لَكِنَّهُ يُعْزَى إِلَى عَلِي ... وَلَيْسَ مَعْنَى ذَاكَ بِالخَفِي

مِنْهُ بَدَا تَنْزِيلُهُ حِينَ سُمِعْ ... ثُمَّ إِلَيْهِ عَوْدُهُ إِذَا رُفِعْ

فَلَا تَكُنْ فَدْماً غَلِيظاً فَظّاً ... إِذَا سَمِعْتَ فِي الحَدِيثِ لَفْظاً

يُوهِمُكَ التَّجْسِيمَ وَالتَّشْبِيهَا ... فَاللهُ قَدْ عَلَّمَكَ التَّنْزِيهَا

مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى الإِنْسَانِ ... بِنِعْمَةٍ أَعْلَى مِنَ الإِيمَانِ

فَاذْكُرْ عَظِيمَ الفَضْلِ مِنْ مَوْلَاكَا ... وَكُنْ شَكُوراً لِلَّذِي أَوْلَاكَا

لَا يَخْرُجُ المَخْلُوقُ عَنْ مَشِيئَتِهِ ... مَا شَاءَ يُنْفِذُ فِي بَرِيَّتِهِ

يُضِلُّ مَنْ يَشَا وَمَنْ شَا هَدَى ... مَا بِيَدِ العَبْدِ ضَلَالٌ وَهُدَى

وَكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ ... وَكُلُّ مَا يَحْدُثُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍ

لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ وَيَعْفُو بَعْدَهُ ... عَمَّا يَشَا فَاعْبُدْهُ وَحْدَهُ

كَمْ مُؤْمِنٌ عَلَى الذُّنُوبِ يَعْكُفُ ... وَاللهُ يُخْفِي ذَنْبَهُ وَيَرْؤُفُ

وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهْ ... وَيَرْحَمُ المُؤْمِنَ فِي مَعَادِهْ

وَلَا تَقُلْ هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ ... كَلَّا وَلَا هَذَا مِنَ الأَبْرَارِ

إِلَّا لِمَنْ أَخْبَرَ عَنْهُ المُصْطَفَى ... فَالنَّارُ وَالفَوْزُ لِمَنْ قَدْ وَصَفَا

وَلِلنَّبِيِّ المُصْطَفَى الشَّفَاعَهْ ... مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَهْ

يُخْرِجُ قَوْماً دَخَلُوا جَهَنَّمَا ... مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ صَيَّرَتْهُمْ حِمَمَا

وَلَيْسَ يَبْقَى فِي خُلُودِ النَّارْ ... مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ سِوَى الكُفَّارْ

وَكُلُّ مَا أَتَاكَ عَنْ مُحَمَّدِ ... صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ خُذْهُ تَرْشُدِ

مِنْ فِتْنَةِ العِبَادِ فِي القُبُورْ ... وَالعَرْضِ يَوْمَ البَعْثِ وَالنُّشُورْ

وَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا شَهِيدْ ... وَسَائِقٌ لَا تُهْمَلُ العَبِيدْ

وَالفَائِزُونَ فِرْقَتَانِ سَابِقَهْ ... وَبَعْدَهَا ذَاتُ اليَمِينِ لَاحِقَهْ

فَيَأْخُذُونَ الكُتْبَ بِالأَيْمَانِ ... وَبِالشِّمَالِ فِرْقَةُ النِّيرَانِ

وَيُوضَعُ المِيزَانُ وَالصِّرَاطْ ... لَا ظُلْمَ إِذْ ذَاكَ وَلَا اشْتِطَاطْ

ثُمَّ يَرَاهُ المُؤْمِنُونَ جَلَّا ... كَمَا يَرَوْنُ البَدْرَ إِذْ تَجَلَّا

وَيَرِدُ الحَوْضَ عَلَى الرَّسُولِ ... مَنْ لَمْ يَحِدْ عَنْ سَنَنِ السَّبِيلِ

وَالرُّوحُ بَعْدَ المَوْتِ فِي نَعِيمْ ... أَوْ فِي عَذَابٍ دَائِمٍ أَلِيمْ

وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ بِفَضْلِهِ ... مَنَّ عَلَى الخَلْقِ بِبَعْثِ رُسْلِهْ

مُؤَيَّداً بِبَاهِرِ الآيَاتْ ... فَكُلُّهُمْ جَاؤُوا بِمُعْجِزَاتْ

وَخَتَمَ الرُّسْلَ بِخَيْرِ مُرْسَلِ ... مُحَمَّدٍ ذِي الفَضْلِ وَالجَدِّ العَلِي

وَخَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَا ... جَاؤُوهُ وَقْتَ البَعْثِ مُؤْمِنِينَا

وَهُمْ فَرِيقَانِ مُهَاجِرُونَا ... وَفِرْقَةٌ بِالنَّصْرِ يُنْعَتُونَا

فَالفِرْقَةُ الأُولَى هُدِيتَ أَفْضَلُ ... وَكُلُّهُمْ مَحَلُّهُ لَا يُجْهَلُ

وَخَيْرُ أَصْحَابِ النَّبِي العَشَرَهْ … وَخَيْرُهَا الصِّدِّيقُ فَاتَّبِعْ أَثَرَهْ

وَبَعْدَهُ الفَارُوقُ ثُمَّ بَعْدَهْ … عُثْمَانُ ذُو النُّورَيْنِ فَاعْرِفْ مَجْدَهْ

ثُمَّ عَلِيٌّ وَلَهُ العَلْيَاءُ … وَكُلُّهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَكْفَاءُ

ثُمِّ إِمَامُ النَّاسِ مِنْ قُرَيْشٍ … طَاعَتُهُ تَلْزَمُ كُلَّ جَيْشٍ

يَخْتَارُهُ أَعْيَانُ أَهْلِ الحَلِّ … وَالعَقْدِ مِنْ أُمَّتِنَا وَالفَضْلِ

فَوَاجِبٌ طَاعَتُهُ وَبِرُّهُ … وَالأَمْرُ فِي حَقٍّ رَآهُ أَمْرُهُ

وَكُنْ مُحِبّاً لِهُدَاةِ الدِّينِ … أَئِمَّةِ الخَلْقِ بِكُلِّ حِينِ

وَمَنْ إِلَيْهِمْ تَرْجِعُ الأَحْكَامُ … وَمَنْ بِهِمْ دِينُ الهُدَى يُقَامُ

أَئِمَّةِ الخَلْقِ الهُدَاةِ الأَرْبَعَهْ … فَكُلُّهُمْ مُفَضَّلٌ بِمَا مَعَهْ

وَاعْتَزِلِ اللَّهْوَ وَكُنْ حَزِينَا … وَابْكِ عَلَى نَفْسِكَ فِي البَاكِينَا

وَاتْلُ كِتَابَ اللهِ مَا اسْتَطَعْتَا … وَقُمْ بِهِ فِي اللَّيْلِ إِنْ أَطَقْتَا

وَكُلُّ مَنْ جَاكَ لِلتَّعْلِيمِ … فَابْذُلْ لَهُ جُهْدَكَ فِي التَّفْهِيمِ

فَخَيْرُكُمْ مَنْ عَلَّمَ القُرْآنَا … عَنِ النَّبِي المُصْطَفَى أَتَانَا

وَإِنَّ نَفْسَ جَاهِلٍ تَهْدِيهَا … خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

وَاعْلَمْ بِأَنَّ المَرْءَ فِي هَذَا الزَّمَنِ … يَفِرُّ إِنْ أَمْكَنَهُ مِنَ الفِتَنِ

فَلَا تَكُنْ تَأْس عَلَى المَحَافِلِ … فَقَدْ رُزِقْتَ فَضْلَ المَنَازِلِ

فَزَكِّ أَعْمَالَكَ إِذْ أُهِّلْتَا   لِذَاكَ تُدْرِكْ كُلَّمَا أَمَّلْتَا

وَانْظُرْ إِلَى القَلْبِ وَلَا تَنْسَاهُ   مُطَهِّراً مِنْ كُلِّ مَا كَسَاهُ

مِنْ دَنَسِ الغِلِّ وَمِنْ رَيْنِ الحَسَدْ   فَفِي صَلَاحِ القَلْبِ إِصْلَاحُ الجَسَدْ

وَالكِبْرِ وَالبَغْيِ بِغَيْرِ الحَقِّ   وَالاحْتِقَارِ لِأَقَلِّ الخَلْقِ

وَقُلْ إِذَا ابْتُلِيتَ بِالرِّيَاءِ   يَا نَفْسُ عَيْنُ اللهِ مِنْ وَرَائِي

وَجَانِبِ البُخْلَ وَكُنْ ذَا بَذْلِ   فَكُلُّ دَاءٍ دُونَ دَاءِ البُخْلِ

وَعَوِّدِ الرِّقَّةَ قَلْباً قَدْ قَسَى   عَسَاكَ تَنْجُو مِنْ بَلَايَاهُ عَسَى

نَصَحْتُ وَالنُّصْحُ أَسَاسُ الدِّينِ   فَخُذْ صَحِيحَ العَقْدِ عَنْ يَقِينِ

وَاتَّبِعْ ضِيَاءَ الكَوْكَبِ الوَقَّادِ   تُفْضِ إِلَى صِحَّةِ الاعْتِقَادِ

ثُمَّ اسْتَعِنْ بِاللهِ فِي الأُمُورِ   فَلَيْسَ غَيْرَ اللهِ مِنْ ظَهِيرِ

وَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا يَسَّرَا   فَقَدْ نَظَمْتُ لِلمَوَاتِ دُرَرَا

أَتْحَفْتُهُ بِأَفْضَلِ الاتْحَافِي   وَحَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الكَافِي

ثُمَّ الصَّلَاةُ مَعَ أَزْكَى الذِّكْرِ   عَلَى النَّبِيِّ الـمُصْطَفَى ذِي الفَخْرِ

نَظَمْتُهُ فِي عَدَدِ مُخْتَارَهْ   مُوسَى وَزَادَت الخَمْسَةُ أَنْوَارَهْ

** ** **

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ

اللهَ أَحْمَدُ عَلَى أَنْ جعَلَنِي مُؤْمِناً، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي قَامَ بِنُصْرَةِ الدِّينِ مُعْلِناً، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالتَّابِعِينَ إِلَى يَوْمِ الفَنا.

هَذَا تَعْلِيقٌ وَضَعْتُهُ عَلَى «**الكَوْكَبِ الوَقَّادِ**» لِلشَّيْخِ عَلَمِ الدِّينِ السَّخَاوِي فِي أُصُولِ الدِّينِ وَالتَّصَوُّفِ، نَافِعٌ إِنْ شَاءَ اللهُ، سَمَّيْتُهُ بِـ«الاقْتِصَاد»، وَاللهَ أَسْأَلُ الـمَوْتَ عَلَى الإِسْلَامِ، وَالخُلُودِ فِي دَارِ السَّلَامِ.

قال الناظم رحمه الله: (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ)

الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَلْهَمَا   وَمَنَّ بِتَعْلِيمِهِ وَفَهَّمَا

(**الحَمْدُ**) أَيْ: الثَّنَاءُ بِالجَمِيلِ عَلَى جِهَةِ التَّعْظِيمِ ثَابِتٌ (**لِلَّهِ عَلَى مَا أَلْهَمَا**) أَيْ: عَلَى إِلْهَامِهِ، وَ«عَلَى» لِلتَّعْلِيلِ، وَالإِلْهَامُ: إِلْقَاءُ الـمَسْأَلَةِ فِي القَلْبِ عَلَى طَرِيقِ الفَيْضِ.

(**وَ**) عَلَى مَا (**مَنَّ**) أَيْ: أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْنَا (**بِتَعْلِيمِهِ**) لَنَا (**وَفَهَّمَا**) أَيْ: رَزَقَنَا الفَهْمَ وَهُوَ الإِدْرَاكُ.



ثُمَّ صَلَاةُ اللهِ ذِي الجَلَالِ   عَلَى النَّبِيِّ المُصْطَفَى وَالآلِ

(ثُمَّ صَلَاةُ اللهِ ذِي الجَلَالِ) أَيْ: صَاحِبِ العَظَمَةِ (عَلَى النَّبِيِّ) مُحَمَّدٍ (المُصْطَفَى) أَيْ: المُخْتَارِ مِنَ النَّاسِ (وَالآلِ) أَيْ: آلِهِ وَهُمْ أَقَارِبُهُ المُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَالمُطَّلِبِ.

سَأَلْتَنِي عَمَّا بِهِ تَدِينْ   وَمَا الَّذِي تَارِكُهُ يَحِينْ

قُلْ مَا إِلَهَ الخَلْقِ إِلَّا اللهُ   ثُمَّ اسْتَقِمْ فَفِيهِمَا رِضَاهُ

(سَأَلْتَنِي) أَيُّهَا المُكَلَّفُ وَضْعَ كِتَابٍ فِي أُصُولِ الدِّينِ يُبْحَثُ فِيهِ (عَمَّا بِهِ تَدِينْ، وَمَا الَّذِي تَارِكُهُ) أَيْ: تَارِكُ اعْتِقَادِهِ (يَحِينْ)[1] أَيْ: يَهْلَكُ وَيَخْسَرُ، فَامْتَثَلْتُ سُؤَالَكَ، وَشَرَعْتُ فِيمَا طَلَبْتَ.

فَاعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ عَلَى المُكَلَّفِ: مَعْرِفَةُ اللهِ[2]، فَاعْرِفْهُ وَ(قُلْ)

---

(١) الحَيْنُ، بالفتح: الهلاك. وكل شيء لم يُوَفَّق للرَّشاد فقد حانَ. (اللسان، حين)

(٢) قال العلماء رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: المَعْرِفَةُ: هِيَ الجَزْمُ المُطَابِقُ عَنْ دَلِيلٍ. فقولهم: «الجزم» جنس يدخل فيه أربعة أفراد؛ لأن الجزم جزمان: جزمٌ مطابِقٌ، وجزمٌ غيرُ مطابق، ثم الجزم المطابق ينقسم إلى قسمين: قِسمٌ له سبَبٌ، وقِسمٌ لا سبَب له، فالقسم الذي له سببٌ هو المعرفة لأن سببها الدليل والبرهان، والقسم الذي لا سبب له هو التقليد، ويسمى اعتقاداً صحيحاً.

ثم الجزم الغير المطابق ينقسم أيضا إلى قسمين: قِسمٌ له سبَبٌ، وقسمٌ لا سبب له، فالقسم الذي له سببٌ هو الجهل المركَّب؛ لأن صاحبه جهِلَ الحقَّ واعتقدَ أنه على الحقِّ، فلذلك لا يرجع عن اعتقاده إن جاء من يعلِّمُه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وأما القسم=

مُخْلِصاً: (**مَا إِلَهَ الخَلْقِ**) أَيْ: لَا مَعْبُودَ لِلْمَخْلُوقِينَ بِحَقٍّ فِي الوُجُودِ (**إِلَّا اللهُ**) الوَاجِبُ الوُجُودِ.

(**ثُمَّ اسْتَقِمْ**) بِإِدَامَتِكَ عَلَى هَذَا المَقُولِ وَغَيْرِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ؛ (**فَفِيهِمَا رِضَاهُ**) وَمَحَبَّتُهُ، أَيْ: إِثَابَتُهُ وَإِكْرَامُهُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت: ٣٠] الآيتين، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «**قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ**»[١].

وَلَا تُشَبِّهْهُ وَقُلْ مَا قَالَ فَلَيْسَ شَيْءٌ مِثْلُهُ تَعَالَى

(**وَلَا تُشَبِّهْهُ**) ـ تَعَالَى ـ بِشَيْءٍ، وَخَالِفِ المُشَبِّهَةَ (**وَقُلْ**) رَدّاً عَلَيْهِمْ (**مَا قَالَ**) فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، (**فَلَيْسَ شَيْءٌ مِثْلُهُ تَعَالَى**).

= الذي لا سببَ له فهو التقليدُ الرديء؛ لأنه لا سبب له سوى المتابعة للغير، وقد أخبر الله تعالى عن أصحاب هذا التقليد الرديء بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

واحترزوا بـ«الجزم» عن غير الجزم كالشكِّ والظن والوهم؛ لأن الشاك والظان والواهم لا جزم معهم.

وقولهم: «المطابق» احترزوا به عن غير المطابق، كجزم النصارى بألوهية عيسى بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وجزم اليهود بنَفْيِ الرسالة عن سيدنا محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حسداً منهم.

وقولهم: «عن دليل» احترزوا به مِن الجزم المطابق بلا دليل، كجزم المقلدين بأن الله متصف بالكمالات منزه عن النقائص؛ لأنه يسمَّى اعتقاداً صحيحاً، ولا يسمَّى معرِفة. (استفدته من شروح وحواشي الصغرى للإمام السنوسي)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام.



حَـــيٌّ مُرِيــــدٌ عَالِـــمٌ قَـــدِيرْ مَـــعَ الكَـــلَامِ سَـــامِعٌ بَصِـــيرْ

هُوَ (**حَيٌّ**) وَالحَيَاةُ: صِفَةٌ يَصِحُّ لِأَجْلِهَا عَلَى الذَّاتِ أَنْ تَعْلَمَ وَتَقْدِرَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ**﴾ [البقرة: ٢٥٥].

(**مُرِيدٌ**) وَالإِرَادَةُ: صِفَةٌ تَقْتَضِي تَرْجِيحَ أَحَدِ الجَائِزَيْنِ عَلَى الآخَرِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**﴾ [هود: ١٠٧].

(**عَالِمٌ**) بِكُلِّ شَيْءٍ، مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا، مُمْكِناً كَانَ أَوْ مُمْتَنِعاً. وَالعِلْمُ: صِفَةٌ يَنْكَشِفُ بِهَا الشَّيْءُ عِنْدَ تَعَلُّقِهَا بِهِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٧٥]، ﴿**أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا**﴾ [الطلاق: ١٢].

(**قَدِيرٌ**) وَالقُدْرَةُ: صِفَةٌ يَصِحُّ لِأَجْلِهَا عَلَى الذَّاتِ أَنْ تَفْعَلَ وَتَتْرُكَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وَأَخْرَجَ العَقْلُ ذَاتَهُ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا.

(**مَعَ الكَلَامِ**) أَيْ: مَعَ اتِّصَافِهِ بِهِ، وَهُوَ صِفَةٌ عُبِّرَ عَنْهَا بِهِ، أَيْ بِالنَّظْمِ المَعْرُوفِ المُسَمَّى بِكَلَامِ اللهِ أَيْضاً، وَيُسَمَّيَانِ بِالقُرْآنِ أَيْضاً[1].

---

(١) والدليل على أن الكلام القائم بذات الله تعالى يسمى قرآنا: قول الإمام ابن جرير الطبري: «القُرْآنُ: الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللهِ ـ تَعَالَى ذِكْرُهُ ـ لَمْ يَزَلْ صِفَةً قَبْلَ كَوْنِ الخَلْقِ جَمِيعًا، وَلَا يَزَالُ بَعْدَ فَنَائِهِمْ». التبصير في معالم الدين (ص ١٢٨)
وقول الإمام البيهقي: «القُرْآنُ كَلَامُ اللهِ ﷻ، وَكَلَامُ اللهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ مَخْلُوقاً وَلَا مُحْدَثاً وَلَا حَادِثاً». اعتقاد أهل السنة، (ج١/ص٩٥) =

وَهُوَ (**سَامِعٌ**) لِكُلِّ مَسْمُوعٍ، (**بَصِيرٌ**) لِكُلِّ مُبْصَرٍ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١].

وَالسَّمْعُ وَالبَصَرُ صِفَتَانِ يَزِيدُ الانْكِشَافُ بِهِمَا عَلَى الانْكِشَافِ بِالعِلْمِ[1].

الأَوَّلُ الخَالِقُ لِلْأَشْيَاء   وَالآخِرُ البَاقِي بِلَا فَنَاء

(**الأَوَّلُ**) أَيْ: الَّذِي سَبَقَ غَيْرَهُ، وَلَمْ يَسْبِقْهُ غَيْرُهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ**﴾ [الحديد: ٣].

(**الخَالِقُ**) أَيْ: المُوجِدُ (**لِلْأَشْيَاءِ**)؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الرعد: ١٦]، وَأَخْرَجَ العَقْلُ ذَاتَهُ.

(**وَالآخِرُ**) أَيْ: (**البَاقِي بِلَا فَنَاءٍ**) قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ: وَتَحْقِيقُ الأَوَّلِ وَالآخِرِ أَنَّهُ لَا أَوَّلَ لَهُ وَلَا آخِرَ.

وَلَمْ يَزَلْ إِلَهُنَا مَوْصُوفاً   بِمَا ذَكَرْتُ وَبِهِ مَعْرُوفاً

(**وَلَمْ يَزَلْ إِلَهُنَا**) سُبْحَانَهُ، وَالإِضَافَةُ لِتَشْرِيفِ المُضَافِ إِلَيْهِ.

(**مَوْصُوفاً**) قَدِيماً (**بِمَا ذَكَرْتُ**) مِنَ الصِّفَاتِ (**وَبِهِ مَعْرُوفاً**).

= وقول الإمام اللالكائي مبينا عقيدة أهل السنة في القرآن الذي هو صفةُ الكلام القائم بذات الله تعالى: هُوَ قُرْآنٌ وَاحِدٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَغَيْرُ مَجْعُولٍ وَمَرْبُوبٍ، بَلْ هُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّماً. شرح أصول اعتقاد أهل السنة (ج٢/ص٣٦٤)

(١) كُلٌّ مِنَ السَّمْعِ وَالبَصَرِ وَالعِلْمِ الإِلَهِيِّ لَهُ حَقِيقَةٌ مِنَ الانْكِشَافِ تَخُصُّه، لَيْسَتْ عَيْنَ حَقِيقَةِ سِوَاهُ، وَكُلُّ حَقِيقَةٍ مِنْهَا عَامَّةٌ لِما تَصْلُحُ لَهُ. (راجع شرح المقدمات للإمام السنوسي، ص ١٥٠، تحقيق نزار حمادي، مؤسسة المعارف، ط١، ١٤٣٠ هـ)

ثُـمَّ كَـلَامُ اللهِ فِـي الـمَصَاحِفِ وَفِـي الصُّـدُورِ عِنْـدَ كُـلِّ عَـارِفِ

(ثُمَّ كَلَامُ اللهِ) وَهُوَ القُرْآنُ القَدِيمُ القَائِمُ بِذَاتِهِ مَكْتُوبٌ أَيْضاً (فِي المَصَاحِفِ) بِأَشْكَالِ الكِتَابَةِ وَصُوَرِ الحُرُوفِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ، (وَ) مَحْفُوظٌ (فِي الصُّدُورِ عِنْدَ كُلِّ عَارِفٍ) بِأَلْفَاظِهِ المُخَيَّلَةِ.

وَهُـوَ الَّـذِي يَقْـرَؤُهُ التَّالُونَـا إِذَا تَلَـوْا وَالنَّـاسُ سَـامِعُونَا

(وَهُوَ الَّذِي يقْرَؤهُ التَّالُونَا) بِحُرُوفِهِ المَلْفُوظَةِ، (إِذَا تَلَوْا وَالنَّاسُ سَامِعُونَا) لَهُ.

مُنَـزَّهٌ مَـعْ ذَا عَـنِ الحُلُـولِ كَمَـا ذَكَـرْتُ وَعَـنِ التَّمْثِيـلِ

(مُنَزَّهٌ) إِلَـهُنَا (مَعَ ذَا) الَّذِي تَقَدَّمَ اتِّصَافُهُ بِهِ (عَنِ الحُلُولِ) أَيْ: عَنْ أَنْ يَحُلَّ فِي شَيْءٍ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ! (كَمَا ذَكَرْتُ، وَعَنِ التَّمْثِيلِ) بِشَيْءٍ كَمَا تَقَدَّمَ.

لَـيْسَ بِـذِي لَـوْنٍ وَلَا ذِي طَعْـمٍ وَلَا بِـأَعْرَاضٍ وَلَا بِجِسْـمٍ

(لَيْسَ بِذِي لَوْنٍ وَلَا ذِي طَعْمٍ وَلاَ بِأَعْرَاضٍ) جَمْعُ عَرَضٍ[1] بِفَتْحِ الرَّاءِ،

---

(١) العَرض في اللغة: الذي لا يقبل البقاء وإن دام، قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]. وفي الاصطلاح هو عبارة عن الصفات القائمة بالجرم التي يستحيل بقاؤها. فزاد في الاصطلاح بتخصيص ما عمَّمته العرب لأنه في اللغة عبارة عن كل ما لا بقاء له، وفي الاصطلاح خاص بالصفات القائمة بالجواهر.

(وَلَا بِجِسْمٍ) لِأَنَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنِ الحُدُوثِ، وَهَذِهِ سِمَاتُ الحَادِثِ؛ لِأَنَّ العَالَـمَ[(١)] إِمَّا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَهُوَ الجِسْمُ، أَوْ بِغَيْرِهِ وَهُوَ العَرَضُ. وَاللَّوْنُ وَالطَّعْمُ بَدِيهِيَّانِ غَنِيَّانِ عَنِ التَّعْرِيفِ.

وَقُلْتُ مَا قَوْلُهُمْ مِنْهُ بَدَا ... وَلَمْ يَقُلْ ذَاكَ النَّبِيُّ ذُو الهُدَى

لَكِنَّهُ يُعْزَى إِلَى عَلِي ... وَلَيْسَ مَعْنَى ذَاكَ بِالخَفِي[(٢)]

مِنْهُ بَدَا تَنْزِيلُهُ حِينَ سُمِعْ ... ثُمَّ إِلَيْهِ عَوْدُهُ إِذَا رُفِعْ

(مِنْهُ) أَيِ اللَّه **(بَدَا تَنْزِيلُهُ)** أَيِ القُرْآنُ **(حِينَ سُمِعَ، ثُمَّ إِلَيْهِ عَوْدُهُ إِذَا رُفِعَ)** قُرْبَ السَّاعَةِ؛ رَوَى ابْنُ مَاجَة عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُدْرَسُ الإِسْلَامُ كَمَا يُدْرَسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لَا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا نُسُكٌ وَلَا صَدَقَةٌ، وَيُسَرَّى عَلَى كِتَابِ اللهِ فِي لَيْلَةٍ فَلَا يَبْقَى مِنْهُ فِي الأَرْضِ آيَةٌ**»[(٣)]. قَالَ القُرْطُبِي: «هَذَا إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ مَوْتِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ».

وَهَذَا اللَّفْظُ ـ أَعْنِي: «مِنْهُ بَدَا وَإِلَيْهِ يَعُودُ» ـ مَنَعَ الشَّيْخُ بَهَاءُ الدِّينِ الحَمِيزِيُّ[(٤)] مِنْ أَصْحَابِنَا إِطْلَاقَهُ عَلَى اللهِ، وَقَالَ الشَّيْخُ عِزُّ الدِّينِ بِنُ عَبْدِ

---

(١) **العالَم** لغةً: هو عبارة عن كل موجود حادث فيه علامة تميزه عن غيره من أنواع الموجودات. واصطلاحاً: هو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى. فالعالَم يطلق في اللغة على أنواع من المخلوقات لتمييز بعضها على بعض، وأما في الاصطلاح فيطلق على جميع المخلوقات لتمييزها على الخالق تبارك وتعالى..

(٢) هذا البيت والذي قبله لم يشرحهما العلامة السيوطي كما تفيد النسخ التي اطلعت عليها، ولكنهما من القصيدة لأن عدد أبياتها لا يتم إلا بها.

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم.

(٤) ترجمته في نجم المهتدي (مخ/ص٤١٠)

السَّلَامِ: «هُوَ كَلَامٌ صَحِيحٌ لِأَنَّهُ أَظْهَرَهُ لِعِبَادِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ تَأْوِيلُهُ؛ ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]».

قَالَ: «وَإِنْ تُؤُوِّلَ بِغَيْرِ هَذَا فَلَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّهُ انْفَصَلَ عَنْ ذَاتِهِ ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهِ فَقَطْ أَخْطَأَ، وَيُعَزَّرُ عَلَى ذَلِكَ»[١]. انتهى

فَلَا تَكُنْ فَدْماً غَلِيظاً فَظّاً ... إِذَا سَمِعْتَ فِي الحَدِيثِ لَفْظاً

يُوهِمُكَ التَّجْسِيمَ وَالتَّشْبِيهَا ... فَاللهُ قَدْ عَلَّمَكَ التَّنْزِيهَا

(فَلَا تَكُنْ) أَيُّهَا الـمُكَلَّفُ **(فَدْماً)** بِفَتْحِ الفَاءِ وَسُكُونِ الدَّالِ الـمُهْمَلَةِ، أَيْ: غَبِيّاً ثَقِيلًا **(غَلِيظاً فَظّاً)** أَيْ جَافِياً، **(إِذَا سَمِعْتَ فِي الحَدِيثِ)** شَامِلٌ

(١) وهذا تفسير المشبهة لهذه العبارة، ولذا اعتقدوا أن الله تعالى تقوم به حروف وأصوات محدَثة يبتدأ إحداثها في ذاته كلما أراد الكلام. والذي يبطل استدلالهم بهذا الكلام أصلًا ما ورد في تفسير ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] قال: «ينتهي العِلمُ إلى الله ﷻ، منه بدأ، وإليه يعود ويرجع». (ص ٢١٧٧، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار الباز، ط١، ١٤١٧هـ) وزاد الإمام الطبري بعد إيراد قوله منه بدأ: «وَتَعَلَّمَتِ العُلَمَاءُ». (جامع البيان، ج١٣/ص٢٧١) فكما يستحيل أن يكون علم الله محدثاً بحيث يبدأ الله إيحداثه في ذاته لاقتضاء ذلك مسبوقيته بالجهل، كذلك يستحيل أن يكون كلامه ﷻ محدثاً يبدأ إحداثه في ذاته بعد عدم لاقتضاء ذلك مسبوقيته بنقيصة السكوت، ولذا قال الإمام ابن جرير الطبري في كتابه التبصير في معالم الدين (ص ١٢٨): «هُوَ المتكلِّمُ الَّذِي لا يجوز عليه السُّكوتُ»، ولذا أيضا قال الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما نقله الإمام اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة، (ج٢/ص٣٩١) «القُرْآنُ مِنْ عِلْمِ اللهِ، وعِلْمُ الله غَيْرُ مَخْلُوقٍ»، يريد قياس صفة الكلام على صفة العلم، فكما استحال أن يكون عِلْمُ الله تعالى مخلوقاً أو محدثاً، استحالَ أن يكون كلامه القائم بذاته ﷻ مخلوقاً أو محدثاً.

لِلْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ وَالقُرْآنِ أَيْضاً ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣] ، **(لَفْظاً يُوهِمُكَ)** فِي جَانِبِ البَارِي تَعَالَى **(التَّجْسِيمَ وَالتَّشْبِيهَا)** فَلَا تَغْتَرَّ بِظَاهِرِهِ، بَلْ نَزِّهْ مُفَوِّضاً مَعْنَاهُ إِلَى اللهِ، أَوْ مُؤَوِّلًا بِمَا يَلِيقُ بِهِ ؛ **(فَاللهُ قَدْ عَلَّمَكَ التَّنْزِيهَا)** فِي كِتَابِهِ، حَيْثُ قَالَ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

مِثَالُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] ، ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ، وَحَدِيثُ مُسْلِمٍ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ**»(١).

فَعَلَى التَّأْوِيلِ وَهُوَ مَذْهَبُ الخلف ـ وَالتَّفْوِيضُ مَذْهَبُ السَّلَفِ ـ يَكُونُ الـمُرَادُ فِي الآيَاتِ بِالاسْتِوَاءِ(٢): ....

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء

(٢) وأما مذهب السلف في هذه الآية فقد بينه الإمام القرطبي بقوله: الله تعالى قديم لا أول لوجوده، فكان موجوداً وحده، ولا موجود سواه، ثم اخترع بقدرته وإرادته ما سبق في علمه، ونفذت به مشيئته كما شاء ومتى شاء، والذي نعلم استحالته قطعا: أزلية شيء غير الله تعالى من عرش، أو كرسي، أو ماء، أو هواء، أو أرض، أو سماء؛ إذ كل ذلك ممكن في نفسه، وكل موجود ممكن محدث، ولأن كل ذلك لا يخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث حادث على ما تُعرف حقيقته في موضعه، ولأنه المعلوم الضروري من الشرع، فمن شك فيه أو جحده فهو كافر.

ومما يعلم استحالته: كون العرش حاملا لله تعالى، وأن الله تعالى مستقر عليه كاستقرار الأجسام؛ إذ لو كان محمولا لكان محتاجا فقيرا لما يحمله، وذلك ينافي وصف الالهية؛ إذ أخص أوصاف الإله الاستغناء المطلق، ولو كان ذلك للزم كونه جسما مقدَّراً، ويلزم كونه حادثاً على ما سبق. =

الاسْتِيلَاءُ[1]، وَبِالوَجْهِ: الذَّاتُ، وَبِاليَدِ: القُدْرَةُ، وَبِالحَدِيثِ أَنَّ قُلُوبَ العِبَادِ كُلَّهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى شَيْءٌ يَسِيرٌ يُصَرِّفُهُ كَيْفَ يَشَاءُ، كَمَا يُقَلِّبُ الوَاحِدُ مِنَّا الشَّيْءَ اليَسِيرَ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِهِ[2].

= فإنْ قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟ قيل: له محامل واضحة، وتأويلات صحيحة، غير أن الشرع لم يعين لنا محملا من تلك المحامل، فيُتوَقَّفُ في التعيين، ويُسلَك مسلكُ السلف الصالح في التسليم. (المفهم في شرح صحيح مسلم، ج٦/ص٦٧٠، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٧هـ)

(١) هذا من المعاني الصحيحة المحتملة التي أشار إليها القرطبي فيما سبق من نقل، ولا وجه لاستبعاده، غير أنه لا قاطع على أنه المراد لله ﷻ، فبناء على كفاية الظن في التفسير يكون معنى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] أن الله ﷻ استولى عليه ودبّره، بحيث لا يتحرك العرش ولا يسكن ولا يختص بالحيز المعين الذي يختص به ولا يتصف بصفة عموما إلا بإرادة الله ﷻ وخلقه ذلك فيه. ووجه اختصاص العرش بالذكر ـ وإن كانت العوالم كلها كذلك تُساويه فيما ذُكر من عظيم الاحتياج إلى الباري تعالى وعدم استغنائها عنه لحظة ـ أنه لمّا كان هو أعظم المخلوقات، وكانت نسبة جميعها إليه كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، ربّما يُتوهَّم أن له من القوة والرفعة ما يستغني به في تدبير نفسه، فنبّه تعالى على أن العرش على ما هو عليه من عظم القوة وجلائل الصفات مقهورٌ محتاج إلى الله ﷻ غاية الاحتياج، ولا يملك لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، ولا يدبّر أمره جملة وتفصيلا، وإذا ثبت في حقه ذلك ثبت في حق غيره بالأحرى. (راجع شرح العقيدة الوسطى للإمام السنوسي، ص ١٤٢، ١٤٣)

(٢) قال الإمام القرطبي: ظاهر الإصبع محالٌ على الله تعالى قطعاً لما قلناه آنفا، ولأنه لو كانت له أعضاء وجوارح لكان كل جزء منه مفتقراً للآخر، فتكون جملته محتاجة، وذلك يناقض الإلَهية. (المفهم، ج٦/ص٦٧٢)

قال الإمام المازري: فهي استعارة لكمال قدرته تعالى، كما يقال: «فلان في قبضتي وبين إصبعي» لا يراد أنه حالٌّ في قبضته ولا بين إصبعه، وإنما المراد أن قَهْرَه سهل عليَّ أعمل فيه ما شئتُ، فكذلك هذا، فالمعني أن قلوب بني آدم تحت قدرته تعالى=



مَـــا أَنْعَـــمَ اللهُ عَلَـــى الإِنْسَـــانِ ۞ بِنِعْمَـــةٍ أَعْلَـــى مِـــنَ الإِيمَـــانِ

(**مَا أَنْعَمَ اللهُ**) تَعَالَى (**عَلَى الإِنْسَانِ بِنِعْمَةٍ أَعْلَى مِنَ الإِيمَانِ**) لِأَنَّهُ السَّبَبُ إِلَى السَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ.

وَخَصَّ الإِنْسَانَ بِالذِّكْرِ ـ وَإِنْ شَارَكَهُ فِي ذَلِكَ الجِنُّ ـ لِمَزِيدِ اخْتِصَاصِ الإِنْسَانِ بِالتَّكْرِيمِ، أَوْ لِأَنَّ الكَلَامَ مَعَهُمْ.

فَـاذْكُرْ عَظِيمَ الفَضْـلِ مِـنْ مَوْلَاكَـا ۞ وَكُـــنْ شَـــكُوراً لِلَّـــذِي أَوْلَاكَـــا

(**فَاذْكُرْ عَظِيمَ الفَضْلِ مِنْ مَوْلَاكَا**) أَيْ: سَيِّدِكَ بِشُكْرِهِ وَالعَمَلِ بِطَاعَتِهِ، (**وَكُنْ شَكُوراً**) أَيْ: كَثِيرَ الشُّكْرِ (**لِلَّذِي أَوْلَاكَا**) أَيْ: أَعْطَاكَ بِقَلْبِكَ بِأَنْ تَعْتَقِدَ بِأَنَّهُ تَعَالَى مُولِيهِ، وَلِسَانَكَ بِأَنْ تَتَحَدَّثَ بِهِ، وَجَوَارِحَكَ بِأَنْ تَخْضَعَ لَهُ وَتَعْمَلَ بِطَاعَتِهِ، فَإِنَّهُ وَعَدَ الشَّاكِرِينَ بِالزِّيَادَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

لَا يَخْـرُجُ الـمَخْلُوقُ عَـنْ مَشِـيئَتِهِ ۞ مَـــا شَـــاءَ يُنْفِـــذُ فِـــي بَرِيَّتِـــهِ

(**لَا يَخْرُجُ المَخْلُوقُ عَنْ مَشِيئَتِهِ**) تَعَالَى وَإِرَادَتِهِ، (**مَا شَاءَ يُنْفِذُ**) بِالمُعْجَمَةِ أَيْ: يُمْضِي (**فِي بَرِيَّتِهِ**) أَيْ: خَلْقِهِ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمَ يَقَعْ؛ قَالَ

= يتصرف فيها بما شاء، لا يعتاص عليه شيء مما أراده فيها كما لا يعتاص على أحدكم ما في كفه وبين إصبعيه، فهو تمثيل للقرب بالأشياء المحسوسة تقريبا للفهم. (راجع المعلم بفوائد مسلم، ج٣/ص٣١٦ تحقيق الشيخ النيفر، بيت الحكمة، ط١، ١٩٩١م؛ وإكمال الإكمال للشيخ الأبي، ج٨/ص٧٧، دار الكتب العلمية)

صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ**» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد[١].

مَا بِيَدِ العَبْدِ ضَلَالٌ وَهُدَى ... يُضِلُّ مَنْ يَشَا وَمَنْ شَا هَدَى

(**يُضِلُّ مَنْ يَشَا**) مِنْ خَلْقِهِ، (**وَمَنْ شَا**) مِنْهُمْ (**هَدَى**) أَيْ: إِلَى طَرِيقِ الحَقِّ، أَيْ: خَلَقَ لَهُ الاهْتِدَاءَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ**﴾ [الأنعام: ٣٩]، وَقَالَ: ﴿**مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ**﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وَقَالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ: «**مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ**»[٢].

(**مَا بِيَدِ العَبْدِ**) أَيْ بِقُدْرَتِهِ (**ضَلَالٌ وَ**) لَا (**هُدَى**)، بَلْ هُمَا بِيَدِ اللهِ تَعَالَى، فَهُوَ خَالِقُ الضَّلَالِ وَالاهْتِدَاءِ، كَسَائِرِ الأَفْعَالِ، وَالعَبْدُ يُثَابُ وَيُعَاقَبُ بِكَسْبِهِ وَاخْتِيَارِهِ.

وَكُلُّ مَا يَحْدُثُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍ ... وَكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ

(**وَكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ**) مِنَ اللهِ تَعَالَى، (**وَكُلُّ مَا يَحْدُثُ**) فِي الوُجُودِ (**مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ**)؛ قَالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ، حَتَّى العَجْزُ وَالكَيْسُ**»[٣]، وقال: «**لَا يُؤْمِنُ العَبْدُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»

---

(١) في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر. قال الإمام القرطبي: معنى هذا الحديث أن ما من شيء يقع في هذا الوجود كائنا كان إلا وقد سبق به علمُ الله تعالى ومشئته، سواء كان من أفعالنا أو صفاتنا أو من غيرها، ولذلك أتى بـ«كل» التي هي=

[رواه الترمذي][1].

وَأَمَّا حَدِيثُ مُسْلِمٍ فِي دُعَاءِ الافْتِتَاحِ «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[2] فَمَعْنَاهُ: وَالشَّرُّ لَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَيْكَ، أَوْ لَا يُضَافُ إِلَيْكَ؛ أَدَباً.

لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ وَيَعْفُو بَعْدَهُ ۝ عَمَّا يَشَا فَاعْبُدْهُ وَحْدَهُ

(لَا يَغْفِرُ) اللهُ **(الشِّرْكَ)** الـمُتَّصِلَ بِالـمَوْتِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ دُونَ﴾ [النساء: ٤٨]، **(وَيَعْفُو بَعْدَهُ عَمَّا يَشَا)** مِنَ الذُّنُوبِ، كَبَائِرِهَا وَصَغَائِرِهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وَهُوَ مُخَصِّصٌ لِعُمُومَاتِ العِقَابِ عَلَى الـمَعَاصِي.

(فَاعْبُدْهُ وَحْدَهُ) وَلَا تُشْرِكْ بِهِ غَيْرَهُ.

كَمْ مُؤْمِنٌ عَلَى الذُّنُوبِ يَعْكُفُ ۝ وَاللهُ يُخْفِي ذَنْبَهُ وَيَرْؤُفُ

(كَمْ) خَبَرِيَّةٌ، بِمَعْنَى: كَثِيرٌ[3] **(مُؤْمِن عَلَى الذُّنُوبِ يَعْكُفُ)** بِضَمِّ الكَافِ

= للاستغراق والإحاطة، وعقبها بـ«حتى» التي هي للغاية حتى لا يخرج عن تلك المقدمة الكلية من الممكنات شيءٌ ولا يُتوَهَّمُ فيها تخصيص. (المفهم، ج٦/ص٦٧١)

(١) في سننه، أبواب القدر عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

(٣) قال ابن هشام: «كم» الخبرية بمعنى: كثيرٌ. والمتكلم بـ«كم» الخبرية لا يستدعي من مخاطبه جواباً؛ لأنه مخبِرٌ. (راجع مغني اللبيب، ج٣/ص٤٥ تحقيق د. عبد اللطيف محمد الخطيب)



وَكَسْرِهَا، أَيْ: يُقِيمُ وَيُصِرُّ، **(وَاللهُ)** تَعَالَى مِنْ كَرَمِهِ مَعَ ذَلِكَ **(يُخْفِي ذَنْبَهُ)** فَلَا يُظْهِرُهُ، **(وَيَرْؤُفُ)** بِهِ فَلَا يَفْضَحُهُ، أَيْ: يَرْحَمُهُ أَشَدَّ الرَّحْمَةِ، أَيْ: يُرِيدُ لَهُ الخَيْرَ.

وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهْ وَيَرْحَمُ المُؤْمِنَ فِي مَعَادِهْ

(وَيَقْبَلُ التَّوْبَةَ) وَهِيَ تَرْكُ المَعْصِيَةِ، مُقْلِعاً، نَادِماً، عَازِماً عَلَى أَنْ لَا يَعُودَ، لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى، وَمِنَ الإِقْلَاعِ رَدُّ المَظَالِمِ.

(عَنْ عِبَادِهْ)؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلَعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»[1].

وَقَالَ: «**لَـلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً[2] بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة. قال الإمام النووي: «يَدُ الجارِحَة مستحيلةٌ في حقِّ الله تعالى». (المنهاج، ج١٧/ص٧٦) قال الشيخ الأبي: بسط اليد كناية عن القبول، وإنما كنى بذلك لأن العرب كانت إذا رضي أحدُهم الشيءَ بسط يده لأخذه، وإذا كرهه قبضها، فخوطبوا بأمر محسوس يعلمونه ليتمكن المراد في نفس السامع، وهو مجاز لأن اليد التي هي الجارحة والبسط يستحيل كل منهما في حق الله لأن ذلك من صفات الأجسام. (إكمال الإكمال، ج٧/ص١٣٦) وراجع المفهم للإمام القرطبي (ج٧/ص١٠٦)

(٢) قال الإمام النووي: قال العلماء: «فَرَحُ اللهِ: هُوَ رِضَاهُ، فالمراد هنا أن الله تعالى يرضى توبة عبده أشدّ مما يرضى واجد ضالته بالفلاة، فعبّر عن الرضا بالفرح تأكيدا لمعنى الرضا في نفس السامع ومبالغة في تقريره». (راجع المنهاج، ج١٧/ص ٦٠)

شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا»[(١)] رَوَاهُمَا مُسْلِمٌ.

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ ـ وَصَحَّحَهُ ـ حَدِيثَ: **«إِنَّ بِالمَغْرِبِ بَاباً مَفْتُوحاً لِلتَّوْبَةِ مَسِيرَتُهُ سَبْعِينَ سَنَةً لَا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ نَحْوِهِ»**[(٢)].

(وَيَرْحَمُ) تَعَالَى **(المُؤْمِنَ)** أَيْ: يُرِيدُ لَهُ الخَيْرَ[(٣)] **(فِي مَعَادِهْ)** فِي الآخِرَةِ.

وَلَا تَقُلْ هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ ... كَلَّا وَلَا هَذَا مِنَ الأَبْرَارِ

إِلَّا لِمَنْ أَخْبَرَ عَنْهُ المُصْطَفَى ... فَالنَّارُ وَالفَوْزُ لِمَنْ قَدْ وَصَفَا

(وَلَا تَقُلْ هَذَا) أَيْ: فُلَانٌ مَثَلًا **(مِنْ أَهْلِ النَّارِ، كَلَّا)** أَيْ: انْتَهِ عَنْ هَذِهِ المَقَالَةِ، **(وَلَا)** تَقُلْ **(هَذَا مِنَ الأَبْرَارِ)** أَيْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الخَوْضِ فِيمَا لَا يُعْلَمُ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده. وهذا اللفظ في مصنف عبد الرزاق الصنعاني، باب كم يمسح على الخفين.

(٣) اختار الإمام السيوطي تفسير الرحمة بإرادة الخير، فهي عنده راجعة إلى صفة الإرادة القديمة القائمة بالذات العلية، وهو أحد القولين فيها؛ قال الإمام ابن دقيق العيد: والرحمة من الله تعالى عند المنزهين من الأصوليين عن التشبيه: إما نفس الأفعال التي يوصلها الله تعالى من الإنعام والأفضال إلى العبد، وإما إرادة إيصال تلك الأفعال إلى العبد، فعلى الأول هي من صفات الفعل، وعلى الثاني هي من صفات الذات. (إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ص ٣١٥)

رَوَى مُسْلِمٌ حَدِيثَ: «**قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ، إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»(١).

(**إِلَّا لِمَنْ أَخْبَرَ عَنْهُ الـمُصْطَفَى**) كَإِخْبَارِهِ بِأَنَّ العَشَرَةَ الآتِيَةَ وَعَبْدُ اللهِ بْنَ سَلَامٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَبِأَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَنَحْوَهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، (**فَالنَّارُ وَالفَوْزُ لِمَنْ قَدْ وَصَفَا**) لِلْقَطْعِ بِصِدْقِ أَخْبَارِهِ.

وَلِلنَّبِـــيِّ الـــمُصْطَفَى الشَّـــفَاعَهْ ... مِـــنْ رَبِّـــهِ يَـــوْمَ تَقُـــومُ السَّـــاعَهْ

(**وَلِلنَّبِي الـمُصْطَفَى الشَّفَاعَهْ مِنْ رَبِّهِ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَهْ**)؛ رَوَى الشَّيْخَانِ حَدِيثَ: «**أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي**» إِلَى أَنْ قَالَ: «**وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ**»(٢).

وَلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَات:

ـ أَعْظَمُهَا: فِي تَعْجِيلِ الحِسَابِ وَالإِرَاحَةِ مِنْ طُولِ الـمَوْقِفِ، وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِهِ(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى. قال الإمام النووي: معنى «يَتَأَلَّى»: يَحْلِفُ. والأَلِيَّةُ: اليَمِينُ. وفيه دلالة لمذهب أهل السنة في غفران الذنوب بلا توبة إذا شاء الله غفرانها. (المنهاج، ج١٦/ص١٧٤)

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التيمم، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٣) قال الإمام النووي: هي الشفاعة العامة التي تكون في المحشر بفزع الخلائق إليه صلى الله عليه وسلم. (المنهاج، ج٥/ص٢٣٩)

ـ الثَّانِيَةُ: فِي إِدْخَالِ قَوْمٍ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ. قَالَ النَّوَوِيُّ: وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِهِ، وَتَرَدَّدَ فِي ذَلِكَ ابْنُ دَقِيق العِيد وَالسُّبْكِيُّ.

ـ الثَّالِثَةُ: فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ فَلَا يَدْخُلُهَا[1].

ـ الرَّابِعَةُ: فِي زِيَادَةِ الدَّرَجَاتِ لِأَهْلِهَا.

ـ الخَامِسَةُ: فِي إِخْرَاجِ مَنْ أُدْخِلَ النَّارَ مِنَ الـمُوَحِّدِينَ[2].

وَقَدْ ذَكَرَهَا النَّاظِمُ بِقَوْلِهِ:

يُخْـرِجُ قَوْمـاً دَخَلُـوا جَهَنَّمَـا ... مِنْ بَعْـدِ مَـا قَـدْ صَيَّرَتْهُمْ حِـمَمَا

وَلَـيْسَ يَبْقَـى فِـي خُلُـودِ النَّـارْ ... مِـنْ غَيْـرِ إِخْـرَاجٍ سِـوَى الكُفَّـارْ

(**يُخْرِجُ قَوْماً دَخَلُوا جَهَنَّمَا مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ صَيَّرَتْهُمْ حِمَمَا**) جَمْعُ حَمَمَة[3]، أَيْ: سُوداً مِنَ الاحْتِرَاقِ. وَخَصَّ هَذِهِ بِالذِّكْرِ رَدّاً عَلَى مَنْ زَعَمَ مِنَ الـمُعْتَزِلَةِ إِنْكَارَهَا وَتَخْلِيدِ العَاصِي فِي النَّارِ، كَمَا قَالَ أَيْضاً: (**وَلَيْسَ يَبْقَى فِي خُلُودِ النَّارِ**) أَحَدٌ (**مِنْ غَيْرِ إِخْرَاجٍ سِوَى الكُفَّارْ**)؛ فَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَاجه فِي

---

(١) وقال الإمام النووي: هي الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن شاء الله تعالى. (المنهاج، ج٣/ص٣٦)

(٢) قال الإمام النووي: هس شفاعة فيمن دخل النار من المذنبين، فقد جاءت هذه الأحاديث بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والملائكة وإخوانهم من المؤمنين، ثم يخرج الله تعالى كل من قال «لا إله إلا الله» كما جاء في الحديث فلا يبقى فيها إلا الكافرون. (المنهاج، ج٣/ص٣٦)

(٣) قال الجوهري في الصحاح: الحمَمُ: الرماد والفحمُ وكلُّ ما احترق من النار، الواحدة: حمَمَةٌ.



الشَّفَاعَةِ: «**فَيَحُدُّ لِي حَدّاً، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الثَّانِيَةَ**» إِلَى أَنْ قَالَ: «**ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مَا بَقِيَ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ**»، وَكَانَ قَتَادَةُ يَقُولُ عَلَى إِثْرِ هَذَا الحَدِيثِ: وَحَدَّثَنَا أَنَسٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**»(١).

وَكُلُّ مَا أَتَاكَ عَنْ مُحَمَّدِ ... صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ خُذْهُ تَرْشُدِ

مِنْ فِتْنَةِ العِبَادِ فِي القُبُورْ ... وَالعَرْضِ يَوْمَ البَعْثِ وَالنُّشُورْ

(**وَكُلُّ مَا**) أَيْ: شَيْءٍ (**أَتَاكَ عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ خُذْهُ تَرْشُدِ**)؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

(**مِنْ**) بَيَانٌ لِـ«مَا» (**فِتْنَةِ العِبَادِ فِي القُبُورْ**) بَعْدَ الدَّفْنِ بِأَنْ يَأْتِيهِ مَلَكَانِ يَسْأَلَانِهِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ، فَيُجِيبُهُمَا بِمَا مَاتَ عَلَيْهِ.

رَوَى الشَّيْخَانِ حَدِيثَ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَيُقْعِدَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»، إِلَى أَنْ قَالَ: «**وَأَمَّا الكَافِرُ أَوِ المُنَافِقُ فَيَقُولَانِ: لَا أَدْرِي**»(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ: «**فَيَقُولَانَ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَا هَذَا**

---

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه.

الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ الـمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الإِسْلَامُ، وَالرَّجُلُ الـمَبْعُوثُ رَسُولُ اللهِ. وَيَقُولُ الكَافِرُ فِي الثَّلَاثِ: لَا أَدْرِي»[1].

وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ: «**يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الـمُنْكَرُ، وَالآخَرُ: النَّكِيرُ**»[2].

(وَالعَرْضِ يَوْمَ البَعْثِ وَالنُّشُورْ) أَيْ: يَوْمَ القِيَامَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا**﴾ [الكهف: ٤٨] الآيَةُ.

وَكُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا شَهِيدْ　　　وَسَائِقٌ لَا تُهْمَلُ العَبِيدْ

(وَكُلُّ نَفْسٍ) يَوْمَئِذٍ **(مَعَهَا شَهِيدٌ)** يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا وَهُوَ الـمَلَكُ، وَالأَيْدِي وَالأَرْجُلُ وَغَيْرُهَا.

(وَسَائِقٌ) أَيْ: مَلَكٌ يَسُوقُهَا إِلَى الـمَحْشَرِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ**﴾ [ق: ٢١]، وَقَالَ: ﴿**يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم**﴾ [النور: ٢٤] الآية.

(لَا تُهْمَلُ العَبِيدُ) بِضَمِّ الفَوْقَانِيَّةِ، مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ.

وَالفَائِزُونَ فِرْقَتَانِ سَابِقَهْ　　　وَبَعْدَهَا ذَاتُ اليَمِينِ لَاحِقَهْ

(وَالفَائِزُونَ) أَيْ: النَّاجُونَ الظَّافِرُونَ بِالخَيْرِ **(فِرْقَتَانِ)** الأُولَى **(سَابِقَهْ، وَبَعْدَهَا ذَاتُ اليَمِينِ لَاحِقَهْ)** لَهَا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ**﴾ [الواقعة: ١٠]،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الجنائز عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في عذاب القبر.



﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧].

فَيَأْخُـــذُونَ الكُتْـــبَ بِالأَيْمَـــانِ وَبِالشِّـــمَالِ فِرْقَـــةُ النِّيـــرَانِ

(**فَيَأْخُذُونَ**) السَّابِقُونَ وَأَصْحَابُ اليَمِينِ (**الكُتْبَ**) لِأَعْمَالِهِمْ (**بِالأَيْمَانِ**)؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩] الآيَاتُ.

(**وَ**) يَأْخُذُ الكُتُبَ (**بِالشِّمَالِ فِرْقَةُ النِّيرَانِ**) وَهَلْ هُمُ الكَفَرَةُ أَوْ مَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ مِنَ العُصَاةِ وَغَيْرِهِمْ؟ قَوْلَانَ حَكَاهُمَا النَّوَوِيُّ وَغَيْرُهُ بِلَا تَرْجِيحٍ، وَالأَرْجَحُ الأَوَّلُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٦] الآيَاتُ، وَقَالَ: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٢] الآيَاتُ.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الأَيْدِي فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ**»(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَالبَزَّارُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ.

وَرَوَى أَبُو جَعْفَرٍ العُقَيْلِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ: «**الكُتُبُ كُلُّهَا تَحْتَ العَرْشِ، فَإِذَا كَانَ المَوْقِفُ بَعَثَ اللهُ رِيحاً فَتُطَيِّرُهَا بِالأَيْمَانِ وَالشَّمَائِلِ، أَوَّلُ خُطٍّ فِيهَا:**

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في العرض؛ والبزار في مسنده البحر الزخار عن أبي موسى الأشعري حديث: ٢٦٣٦؛ وابن ماجه في سننه عن أبي موسى الأشعري، كتاب الزهد، باب ذكر البعث.

﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤][1].

وَيُوضَعُ الـمِيزَانُ وَالصِّرَاطْ   لَا ظُلْمَ إِذْ ذَاكَ وَلَا اشْتِطَاطْ

(**وَيُوضَعُ الـمِيزَانُ**) وَلَهُ لِسَانٌ وَكَفَّتَانِ، تُعْرَفُ بِهِ مَقَادِيرُ الأَعْمَالِ بِأَنْ تُوزَنَ صُحُفُهَا بِهِ، (**وَالصِّرَاطُ**) وَهُوَ كَمَا فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ: «**جِسْمٌ مَمْدُودٌ عَلَى ظَهْرِ جَهَنَّمَ، أَدَقُّ مِنَ الشَّعَرِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ**»[2]، فَيَجُوزُهُ الـمُؤْمِنُونَ، وَتَزِلُّ بِهِ الكُفَّارِ فِي النَّارِ.

(**لَا ظُلْمَ إِذْ ذَاكَ وَلَا اشْتِطَاطْ**) أَيْ: لَا جَوْرَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ حَدِيثَ: «**يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ وَيُنْشَرُ عَلَيْهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ اللهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئاً؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ، فَتَخْرُجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتوضَعُ السِّجِلَّات فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتْ البِطَاقَةُ وَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**»[3].

---

(١) رواه العقيلي في الضعفاء الكبير، باب الياء، يغنم بن سالم بن قيس، حديث: ٢٢٩٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب=

قَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَفِي الصَّحِيحِ حَدِيثُ: «**يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ وَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ، فَأَوَّلُهُمْ كَالبَرْقِ، ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ**[١]، **حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ وَلَا يَسِيرُ إِلَّا زَحْفاً، وَفِي حَافِيَتِهِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ تَأْخُذُ مَنْ أُمِرَتْ بِأَخْذِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ**»[٢].

ثُمَّ يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ جَلَّا ... كَمَا يَرَوْنُ الْبَدْرَ إِذْ تَجَلَّا

(**ثُمَّ يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ جَلَّا**) بَعْدَ دُخُولِ الجَنَّةِ، وَقَبْلَهُ قَبْلَ الْمُرُورِ عَلَى الصِّرَاطِ كَمَا ذَكَرَ الغَزَالِيُّ، فَـ«ثُمَّ» لِلتَّرْتِيبِ فِي الذِّكْرِ.

(**كَمَا يَرَوْنُ البَدْرَ إِذْ تَجَلَّا**) لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُخَصِّصِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أَيْ: لَا تَرَاهُ، أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ فَقَالَ ﷺ: «**هَلْ تُضَارُّونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**» قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»[٣]. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

= فرض الإيمان، ذكر البيان بأن الله جل وعلا بتفضله قد يغفر لمن أحب.

(١) قال الإمام النووي: أما «شدّ الرجال» فهو بالجيم جمع رجل، هذا هو الصحيح المعروف المشهور. ونقل القاضي أنه في رواية ابن ماهان بالحاء. قال القاضي: وهما متقاربان في المعنى، وشدها: عدوها البالغ وجريها. (المنهاج، ج٣/ص٧٢)

(٢) هذه أطراف أحاديث أخرجها مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، وباب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة=

أَمَّا الكُفَّارُ فَلَا يَرَوْنَهُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] الـمُوَافِقِ لِلآيَةِ السَّابِقَةِ.

وَيَـرِدُ الحَـوْضَ عَلَـى الرَّسُـولِ مَـنْ لَـمْ يَحِـدْ عَـنْ سَـنَنِ السَّـبِيلِ

(وَيرِدُ الحَوْضَ) بِالنَّصْبِ **(عَلَى الرَّسُولِ)** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي الـمَوْقِفِ قَبْلَ الصِّرَاطِ كَمَا صَحَّحَهُ القُرْطُبِيُّ، **(مَنْ)** فَاعِلُ «يَرِدُ» **(لَمْ يَحِدْ)** أَيْ: يَمِلْ **(عَنْ سَنَنِ السَّبِيلِ)** بِفَتْحِ السِّينِ وَالنُّونِ، أَيْ: طَرِيقِ الإِسْلَامِ، بِخِلَافِ مَنْ حَادَ عَنْهُ.

رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً[1]، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّماً فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ»**، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] إِلَى آخِرِهِ، ثُمَّ قَالَ: **«أَتَدْرُونَ مَا الكَوْثَرُ؟»** قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **«فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي** عَزَّوَجَلَّ**، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ**

= إلى ربها ناظرة؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

ورؤية الله عَزَّوَجَلَّ جائزة عقلا وواقعة سمعاً في الآخرة للمؤمنين، أثبتها أهل السنة خلافا للمعتزلة والشيعة في نفيها رأسا، وخلافا للمجسمة والمشبهة الذين أثبتوها لاعتقادهم أن الله تعالى جسم متحيز في جهة كسائر الأجرام المخلوقة، تعالى عن قولهم علواً كبيراً، قال الإمام النووي: **«لَا يَلْزَمُ مِنْ رُؤْيَةِ اللهِ تَعَالَى إِثْبَاتُ جِهَةٍ، تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ! بَلْ يَرَاهُ الـمُؤْمِنُونَ لَا فِي جِهَةٍ، كَمَا يَعْلَمُونَهُ لَا فِي جِهَةٍ»** (المنهاج، ج٣/ص١٦) وقال الإمام ابن عطية: «**فَمِنْ حَيْثُ جَازَ أَنْ نَعلَمَهُ تعالى لَا في مَكَانٍ ولَا مُتَحيِّزاً ولا مُقابِلًا، ولم يتعلَّق عِلْمُنا بأكثر من الوجود، جاز أن نراه غير مقابِلٍ ولا محاذٍ ولا مكيَّفاً ولا محدوداً.** (المحرر الوجيز (ج٣/ص٤٣٣ طبعة قطر)

(١) الإغفاء: هو النوم الخفيف.

أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، يُخْتَلَجُ[١] العَبْدُ مِنْهُمْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فَيُقَالُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَ بَعْدَكَ»[٢].

وَرَوَى البُخَارِيُّ حَدِيثَ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، كِيزَانُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَضْمَأْ بَعْدَهُ أَبَداً»[٣].

وَالرُّوحُ بَعْدَ المَوْتِ فِي نَعِيمْ ... أَوْ فِي عَذَابٍ دَائِمٍ أَلِيمْ

(**وَالرُّوحُ بَعْدَ المَوْتِ**) لَا تَفْنَى عَلَى الصَّحِيحِ، بَلْ هِيَ بَاقِيَةٌ، إِمَّا (**فِي نَعِيمٍ، أَوْ فِي عَذَابٍ دَائِمٍ أَلِيمٍ**) أَيْ: مُؤْلِمٍ؛ قال ﷺ: «**القَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ**»[٤] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَرَوَى الشَّيْخَانِ حَدِيثَ: «**عَذَابُ القَبْرِ حَقٌّ**»[٥]، وَأَنَّهُ ﷺ مَرَّ عَلَى

---

(١) أي: يُنتزَعُ ويُحتَجزُ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب في الحوض، بلفظ: «أبيض من اللبن»، وبلفظ «أبيض من الوَرِق» ـ أي الفِضَّة ـ أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب ذكر عذاب القبر في صلاة الخسوف، بلا زيادة: «عذاب القبر حق».



قَبْرَيْنِ فَقَالَ: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ**»[1].

وَإِنَّــــهُ سُــــبْحَانَهُ بِفَضْــــلِهِ   مَــنَّ عَلَــى الخَلْــقِ بِبَعْــثِ رُسْــلِهْ

(**وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ بِفَضْلِهِ مَنَّ عَلَى الخَلْقِ بِبَعْثِ رُسْلِهِ**) إِلَيْهِمْ لِيَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِهِ، وَيُبَشِّرُوهُمْ، وَيُنْذِرُوهُمْ، وَيُبَيِّنُوا لَـهُمْ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ؛ إِذِ الرَّسُولُ سِفَارَةٌ بَيْنَ اللهِ وَخَلْقِهِ.

مُؤَيّـــــداً بِبَـــــاهِرِ الآيَـــــاتْ   فَكُلُّهُـــــمْ جَـــــاؤُوا بِمُعْجِـــــزَاتْ

(**مُؤَيِّداً**) بِكَسْرِ اليَاءِ، حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ، أَيْ: مُقَوِّياً إِيَّاهُمْ (**بِبَاهِرِ الآيَاتِ**) أَيْ: ظَاهِرِ العَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ.

(**فَكُلُّهُمْ جَاؤُوا بِمُعْجِزَاتِ**) جَمْعُ مُعْجِزَةٍ وَهِيَ أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ بِقَصْدِ التَّحَدِّي ـ أَيْ: طَلَبُ الـمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ ذَلِكَ مِنْهُمْ ـ عَلَى وَفْقِ الـمُدَّعَى، سَالِمٌ مِنَ الـمُعَارَضَةِ.

مِنْهَا مَا قَصَّ عَلَيْنَا القُرْآنُ كَالعَصَا وَاليَدِ لِـمُوسَى، وَالنَّاقَةِ لِصَالِحٍ، وَإِحْيَاءِ الـمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ لِعِيسَى، وَمِنْهَا مَا لَـمْ يَقُصَّ كَمُعْجِزَةِ شُعَيْبٍ.

وَأَعْظَمُهُمْ مُعْجِزَةً نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ، وَقَدْ ظَهَرَ عَلَى يَدِهِ أَلْفُ مُعْجِزَةٍ، وَقِيلَ: ثَلَاثَةُ آلَافٍ، مِنْهَا ـ وَهُوَ أَعْظَمُهَا ـ القُرْآنُ، وَانْشِقَاقُ القَمَرِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه.



وَخَــتَمَ الرُّسْـــلَ بِخَيْـــرِ مُرْسَـــلِ مُحَمَّـدٍ ذِي الفَضْـلِ وَالجَـدِّ العَلِـي

(وَخَتَمَ الرُّسْلَ) وَهُمْ كَمَا فِي حَدِيثِ أَحْمَدَ ثَلَاثُمَائَة وَثَلَاثَةَ عَشْرَ، وَفِي رِوَايَةٍ لَهُ: «وَخَمْسَ عَشْرَ» وَأَوَّلُهُمْ آدَمُ، وَالأَنْبِيَاءُ مِئَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفاً[١].

(بِخَيْرِ مُرْسَلٍ مُحَمَّدٍ) قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وَلَوْ قَالَ النَّاظِمُ: «وَخَتَمَ الأَنْبِيَاءَ» لَوَافَقَ الآيَةَ، وَلَزِمَ مِنْهُ نَفْيُ الرَّسُولِ بَعْدَهُ، بِخِلَافِ العَكْسِ[٢].

وَالـمُرَادُ عَدَمُ خَلْقِ نَبِيٍّ وَبَعْثِهِ بَعْدَهُ، وَإِلَّا فَالسَّيِّدُ عِيسَى حَيٌّ، وَإِذَا نَزَلَ يَحْكُمُ بِشَرِيعَتِهِ، لَا بِشَرِيعَةِ نَفْسِهِ كَمَا وَرَدَ فِي الحَدِيثِ.

(ذِي الفَضْلِ) عَلَى جَمِيعِ العَالَـمِينَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالـمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ، **(وَ)** ذِي **(الجَدِّ العَلِي)** أَيْ: العَظَمَةِ العَلِيَّةِ.

وَخَيْـــرُ هَــــذِهِ الأُمَّــــةِ الَّــــذِينَا جَـــاؤُوهُ وَقْــتَ البَعْــثِ مُؤْمِنِينَـــا

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، من حديث أبي ذر الغفاري، حديث: ٢١٠١٧؛ ورواه الحاكم في المستدرك، كتاب التواريخ، برقم ٤١٠٦ بسند حسن.

(٢) وهذا بناء على أن النبي والرسول يشتركان في تلقي الوحي، غير أن الرسول يؤمر بالتبليغ، وأما النبي فلا يؤمر بذلك، فالنبوة أعم من الرسالة، والرسول أخص، والنبي أعم، والقاعدة أنه لا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم، فلا يلزم من ختم الرسل ختم الأنبياء، ولكن يلزم من نفي الأعم نفي الأخص، فيلزم من ختم النبوة ختم الرسالة.

وَهُـــمْ فَرِيقَـــانِ مُهَاجِرُونَـــا وَفِرْقَـــةٌ بِالنَّصْـــرِ يُنْعَتُونَـــا

(وَخَيْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ) أَيْ: أُمَّتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **(الَّذِينَا جَاؤُوهُ وَقْتَ البَعْثِ مُؤْمِنِينَا)** وَهُمْ السَّابِقُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ.

(وَهُمْ فَرِيقَانِ مُهَاجِرُونَا) مِنْ مَكَّةَ إِلَى المَدِينَةِ، **(وَفِرْقَةٌ بِالنَّصْرِ يُنْعَتُونَا)** وَهُمْ الأَنْصَارُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآيَةُ.

وَاخْتُلِفَ فِي تَعْيِينِهِمْ، فَقِيلَ: هُمْ أَهْلُ بَدْرٍ، وَقِيلَ: أَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ.

فَالفِرْقَـةُ الأُولَـى هُـدِيتَ أَفْضَـلُ وَكُلُّهُـــمْ مَحَلُّـــهُ لَا يُجْهَـــلُ

(فَالفِرْقَةُ الأُولَى هُدِيتَ أَفْضَلُ)؛ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْلَا الهِجْرَة لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ**»[1] رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

(وَكُلُّهُمْ) أَيْ: الصَّحَابَةُ **(مَحَلُّهُ)** فِي الفَضْلِ **(لَا يُجْهَلُ)**؛ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[2] رَوَاهُ الشَّيْخَانِ، وَقَالَ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار»؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب: لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد؛ ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.



أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[١] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَخَيْــرُ أَصْــحَابِ النَّبِــي العَشَــرَهْ وَخَيْرُهَــا الصِّــدِّيقُ فَــاتَّبِعْ أَثَــرَهْ

(وَخَيْرُ أَصْحَابِ النَّبِي) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **(العَشَرَةُ)** المَشْهُودُ لَهُمْ بِالجَنَّةِ بِالإِجْمَاعِ، وَهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيٌّ، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرُ، وَسَعْدٌ، وَسَعِيدٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

(وَخَيْرُهَا) أَبُو بَكْرٍ **(الصِّدِّيقُ فَاتَّبِعْ أَثَرَهُ)** وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى الأَصَحِّ.

وَبَعْــدَهُ الفَــارُوقُ ثُــمَّ بَعْــدَهْ عُثْمَـانُ ذُو النُّـورَيْنِ فَـاعْرِفْ مَجْـدَهْ

ثُــمَّ عَلِــيٌّ وَلَــهُ العَلْيَــاءُ وَكُلُّهُــمْ مِــنْ بَعْــدِهِ أَكْفَــاءُ

(وَبَعْدَهُ) فِي الفَضِيلَةِ أَبُو حَفْصٍ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ **(الفَارُوقُ، ثُمَّ بَعْدَهُ عُثْمَانُ)** بْنُ عَفَّانٍ **(ذُو النُّورَيْنِ فَاعْرِفْ مَجْدَهْ، ثُمَّ)** بَعْدَهُ **(عَلِيٌّ)** بْنُ أَبِي طَالِبٍ **(وَلَهُ العَلْيَاءُ)**.

رَوَى البُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «كُنَّا فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا نَعْدِلُ بِأَبِي بَكْرٍ أَحَداً، ثُمَّ عُمَرَ، ثُمَّ عُثْمَانَ»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب تحريم سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ وبنحوه أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَفِي رِوَايَةِ الطَّبَرَانِيِّ: «كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيٌّ: أَفْضَلُ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، فَيَسْمَعُ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يُنْكِرُهُ»[1].

وَذَكَرَ النَّاظِمُ الخُلَفَاءَ الثَّلَاثَة بِمَا كَانُوا يُلَقَّبُونَ بِهِ، فَلُقِّبَ أَبُو بَكْرٍ بِـ«الصِّدِّيق» لِمُبَالَغَتِهِ فِي الصِّدْقِ وَالتَّصْدِيقِ، وَلِأَنَّهُ صَدَّقَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الإِسْرَاءِ مِنْ غَيْرِ تَلَعْثُمٍ؛ وَرَوَى البَيْهَقِيُّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا لَـمَّا أَصْبَحَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ عَنِ الإِسْرَاءِ قَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: صَدَقَ! إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ بِمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ الصِّدِّيقُ[2].

وَلُقِّبَ عُمَرُ بِـ«الفَارُوق» لِقَوْلِهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَفْرَقُ[3] مِنْكَ»[4]، وَعُثْمَانُ بِـ«ذِي النُّورَيْنِ» لِتَزَوُّجِهِ بِابْنَتَيْ النَّبِيِّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رُقَيَّةَ، وَأُمِّ كَلْثُومَ.

(وَكُلُّهُمْ) وَالبَاقُونَ بَعْدَ العَشَرَةِ **(مِنْ بَعْدِهِ أَكْفَاءُ)** مُتَسَاوُونَ فِي الفَضِيلَةِ.

ثُــمَّ إِمَــامُ النَّــاسِ مِــنْ قُــرَيْشٍ   طَاعَتُــهُ تَلْــزَمُ كُــلَّ جَــيْشٍ

وَلَـمَّا فَرَغَ الـمُصَنِّفُ مِنْ ذِكْرِ العَقَائِدِ شَرَعَ كَغَيْرِهِ فِي أَحْكَامِ الإِمَامَةِ فَقَالَ:

---

(١) المعجم الكبير للطبراني، حديث: ١٢٩١٠

(٢) رواه البيهقي في دلائل النبوة، باب الإسراء برسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المسجد الحرام؛ والحاكم في المستدرك، كتاب معرفة الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

(٣) الفَرَقُ: الخَوْفُ.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل؛ ما ذكر في فضل عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(ثُمَّ إِمَامُ النَّاسِ) الَّذِينَ يَقْتَدُونَ بِهِ، وَيَقُومُ بِأَحْوَالِ الرَّعِيَّةِ وَمَصَالِحِهِمْ، وَنَصْبُهُ وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ بِالإِجْمَاعِ، وَشَرْطُهُ أَنْ يَكُونَ **(مِنْ قُرَيْشٍ)**؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ**»[1] رَوَاهُ النَّسَائِيُّ.

قَالَ أَصْحَابُنَا: فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ قُرَشِيٌّ جَامِعٌ لِلشُّرُوطِ ـ وَهِيَ التَّكْلِيفُ، وَالحُرِّيَّةُ، وَالذُّكُورِيَّةُ، وَالاجْتِهَادُ، وَالرَّأْيُ، وَالسَّمْعُ، وَالبَصَرُ، وَالنُّطْقُ ـ فكِنَانِيٌّ، فَإِنْ فُقِدَ فَمِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، فَإِنْ لَمْ يُوجَدْ فَقَالَ البَغَوِيُّ: يُوَلَّى أَعْجَمِيٌّ، وَالمُتَوَلِّي جُرْهَمِيٌّ، فَإِنْ فُقِدَ فَمِنْ وَلَدِ إِسْحَاقَ. وَ«جُرْهُم»: أَصْلُ العَرَبِ.

(طَاعَتُهُ تَلْزَمُ كُلَّ جَيْشٍ) لِمَا سَيَأْتِي.

يَخْتَارُهُ أَعْيَانُ أَهْلِ الحَلِّ ... وَالعَقْدِ مِنْ أُمَّتِنَا وَالفَضْلِ

(يَخْتَارُهُ) لِلْإِمَامَةِ **(أَعْيَانُ أَهْلِ الحَلِّ وَالعَقْدِ مِنْ أُمَّتِنَا)** أَيْ: أَصْحَابُ القَوْلِ المَرْجُوعِ إِلَيْهِمْ فِي الأُمُورِ **(وَ)** أَهْلُ **(الفَضْلِ)** فَيُبَايِعُوهُ كَمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَوَاجِبٌ طَاعَتُهُ وَبِرُّهُ ... وَالأَمْرُ فِي حَقٍّ رَآهُ أَمْرُهُ

(فَوَاجِبٌ) عَلَى الرَّعِيَّةِ **(طَاعَتُهُ)**؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

---

(١) حديث صحيح أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب القضاء، باب، حديث: ٥٧٦٨.

(وَبِرُّهُ) بِالنُّصحِ لَهُ، وَتَنْبِيهِهِ عَلَى مَا فِيهِ الـمَصْلَحَةُ لَهُ وَلِلرَّعِيَّةِ، وَإِعَانَتِهِ، وَرَدِّ عَدُوِّهِ؛ قَالَ ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قَالُوا لِـمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لِـلَّهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ وَلِأَئِمَّةِ الـمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(وَالأَمْرُ) مُبْتَدَأٌ (فِي حَقٍّ رَآهُ أَمْرُهُ) خَبَرُ الـمُبْتَدَأ، لَا أَمْرُ غَيْرِهِ، بِخِلَافِ أَمْرِهِ فِي بَاطِلٍ فَلَا يُطَاعُ فِيهِ.

وَكُـنْ مُحِبّـاً لِـهُدَاةِ الـدِّينِ ... أَئِمَّـةِ الخَلْـقِ بِكُـلِّ حِـينِ

وَمَـنْ إِلَـيْهِمْ تَرْجِـعُ الأَحْكَـامُ ... وَمَـنْ بِهِـمْ دِيـنُ الـهُدَى يُقَـامُ

أَئِمَّـةِ الخَلْـقِ الـهُدَاةِ الأَرْبَعَـهْ ... فَكُلُّهُـمْ مُفَضَّـلٌ بِمَـا مَعَـهْ

(وَكُنْ مُحِبّاً لِهُدَاةِ الدِّينِ) أَيْ: الدَّالِّينَ عَلَيْهِ، مُعْتَقِداً أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ، (أَئِمَّةِ الخَلْقِ) قُدْوَتِهِمْ (بِكُلِّ حِينِ) أَيْ: زَمَنٍ (وَمَنْ إِلَيْهِمْ تَرْجِعُ الأَحْكَامُ) فِي الدِّينِ، (وَمَنْ بِهِمْ دِينُ الـهُدَى) أَيْ: الإِسْلَامُ (يُقَامُ).

(أَئِمَّةِ الخَلْقِ الـهُدَاةِ الأَرْبَعَهْ) الشَّافِعِيُّ، وَمَالِكٌ، وَأَبُو حَنِيفَةَ، وَأَحْمَدُ رضي الله عنهم، (فَكُلُّهُمْ مُفَضَّلٌ بِمَا مَعَه) مِنَ العُلُومِ وَالعَوَارِفِ وَالـمَعَارِفِ.

رَوَى الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ وَالبَيْهَقِيُّ فِي الـمَعْرِفَةِ حَدِيثَ: «**لَا تَسُبُّوا قُرَيْشاً فَإِنَّ عَالِـمَهَا يَمْلأُ الأَرْضَ عِلْماً**»(٢) قَالَ العُلَمَاءُ: الـمُرَادُ بِهَذَا العَالِمِ هُوَ الشَّافِعِيُّ؛

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة»؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

(٢) رواه الطيالسي في مسنده، حديث: ٣٠٣؛ والبيهقي في معرفة السنن والآثار، باب ذكر مولد الشافعي رحمه الله تعالى وتاريخ وفاته ومقدار سنه، حديث: ٩٩.



فَإِنَّهُ لَـمْ يَنْتَشِرْ فِي قُرَيْشٍ قَبْلَهُ مَا انْتَشَرَ عَنْهُ مِنَ العِلمِ.

وَرَوَى النَّسَائِيُّ وَالحَاكِمُ حَدِيثَ: «**تَضْرِبُوا أَكْبَادَ الإِبِلِ وَتَطْلُبُونَ العِلْمَ فَلَا تَجِدُونَ عَالِماً أَعْلَمَ مِنْ عَالِمِ المَدِينَةِ**»(١)، قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: نَرَى هَذَا العَالِمَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ.

وَاعْتَـزِلِ اللَّهْـوَ وَكُـنْ حَزِينَـا وَابْـكِ عَلَـى نَفْسِـكَ فِـي البَاكِينَـا

وَقَدْ شَرَعَ الـمُصَنِّفُ كَغَيْرِهِ فِي نُبْذَةٍ مِنَ التَّصَوُّفِ الـمُصَفِّي لِلْقُلُوبِ، فَقَالَ: (**وَاعْتَزِلِ اللَّهْوَ**) وَاللَّعِبَ(٢)، فَفِي حَدِيثِ ابْنِ مَاجَة: «**كُلُّ مَا يَلْهُو بِهِ الـمُسْلِمُ بَاطِلٌ، إِلَّا رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُدَاعَبَتَهُ امْرَأَتَهُ، فَإِنَّهُ مِنَ الحَقِّ**»(٣).

(**وَكُنْ حَزِينَا**)؛ فَفِي الحَدِيثِ: «كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرِ»(٤) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. وَرَوَى الحَاكِمُ فِي الـمُسْتَدْرَكِ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلِّ عَلَى الجَنَائِزِ لَعَلَّ ذَلِكَ يُحْزِنُكَ، فَإِنَّ الحَزِينَ**

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب المناسك، فضل عالم المدينة؛ والحاكم في المستدرك، كتاب العلم، حديث: ٢٧٩ وهو الذي نقل كلام سفيان بن عيينة.

(٢) قال الإمام محمد بن عرفة (ت٨٠٣هـ): اللَّهْوُ: هُوَ الاشتغالُ بشيء غيرُه أولى منه، أعم من كونه مباحاً أو منهيا عنه شرعاً. واللَّعِبُ: هو الاشتغالُ بما غيرُه أولى منه مما نهى عنه الشارع، كاللعب بالنرد والشطرنج، فاللَّهْوُ أعمُّ من اللعب. (تقييد التفسير، للسلاوي، ص ٣٣٣ تحقيق د. الزار).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله؛ والترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله.

(٤) أورده الترمذي في كتاب الشمائل المحمدية، باب كيف كان كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حديث: ٢٢٠.

فِي ظِلِّ اللهِ»[1]. وَكَانَ السَّلَفُ يَقُولُونَ: عَلَى كُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ العَقْلِ طُولُ الحُزْنِ»[2].

(وَابْكِ عَلَى نَفْسِكَ) وَتَقْصِيرِكَ **(فِي البَاكِينَا)** رَوَى أَحْمَدُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ فَقَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا النَّجَاةُ؟ قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «احْفَظْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعُكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»[3] وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**»[4] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

وَاتْلُ كِتَابَ اللهِ مَا اسْتَطَعْتَا   وَقُمْ بِهِ فِي اللَّيْلِ إِنْ أَطَقْتَا

(وَاتْلُ) أَيْ: اقْرَأْ **(كِتَابَ اللهِ)** أَيْ: القُرْآنَ **(مَا اسْتَطَعْتَا)** فَفِي الحَدِيثِ: «**اقْرَءُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعاً لِأَصْحَابِهِ**»[5] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَكَانَ لِلسَّلَفِ فِيهِ عَادَاتٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَخْتِمُهُ فِي شَهْرَيْنِ، وَبَعْضُهُمْ فِي شَهْرٍ، وَبَعْضُهُمْ فِي عَشْرٍ، وَبَعْضُهُمْ فِي ثَمَانٍ، وَبَعْضُهُمْ فِي سَبْعٍ، وَهُوَ الأَكْثَرُ.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الجنائز، حديث ١٣٣٠؛ والبهقي في شعب الإيمان، التاسع والثلاثون من شعب الإيمان، فصل في زيادة القبور.

(٢) وأورده الإمام القشيري في رسالته عن الفضيل بن عياض، وقال: الحُزْنُ: حَالٌ يَقْبِضُ القَلْبَ عَنِ التفرُّقِ فِي أودية الغفلة.

(٣) أخرجه الإمام في مسنده، من حديث أبي أمامة الباهلي، حديث: ٢١٦٧٥؛ والترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في حفظ اللسان، وقال: حديث حسن.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب فضائل الجهاد، باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن.

(وَقُمْ بِهِ فِي اللَّيْلِ) مُصَلِّياً **(إِنْ أَطَقْتَا)** لِأَنَّ قِرَاءَةَ القُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ خَارِجِهَا، وَصَلَاةُ اللَّيْلِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّهَارِ لِحَدِيثِ: «**أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ**»(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ حَدِيثَ: «**مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِئَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ القَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ المُقَنْطِرِينَ**»(٢) وَمَا كَثُرَ فَهُوَ أَفْضَلُ.

وَيُكْرَهُ اسْتِيعَابُ اللَّيْلِ كُلِّهِ، وَأَفْضَلُ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي فِعْلِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ «**كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ**»(٣) رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

وَكُلُّ مَنْ جَاكَ لِلتَّعْلِيمِ ... فَابْذُلْ لَهُ جُهْدَكَ فِي التَّفْهِيمِ

فَخَيْرُكُمْ مَنْ عَلَّمَ القُرْآنَا ... عَنِ النَّبِي المُصْطَفَى أَتَانَا

(وَكُلُّ مَنْ جَاكَ لِلتَّعليمِ، فَابْذُلْ لَهُ جُهْدَكَ فِي التَّفْهِيمِ) نُصْحاً لَهُ.

(فَخَيْرُكُمْ مَنْ عَلَّمَ القُرْآنَا عَنِ النَّبِي المُصْطَفَى أَتَانَا) رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، أبواب قراءة القرآن وتحزيبه وترتيله، باب تحزيب القرآن. و«المقنطرين»: أصحاب الأجر العظيم، الذين يؤتون أجرهم بالقناطير.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، أبواب تقصير الصلاة، باب من نام عند السحر؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلم القرآن وعلمه.



وَإِنَّ نَفْسَ جَاهِلٍ تَهْدِيهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا

(وَإِنَّ نَفْسَ جَاهِلٍ تَهْدِيهَا) تَدُلُّهَا عَلَى مَا يَنْفَعُهَا مِنَ العِلْمِ **(خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)** كَذَا مِنْ حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ[١].

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الـمَرْءَ فِي هَذَا الزَّمَنِ يَفِرُّ إِنْ أَمْكَنَهُ مِنَ الفِتَنِ

(وَاعْلَمْ بِأَنَّ الـمَرْءَ فِي هَذَا الزَّمَنِ يَفِرُّ إِنْ أَمْكَنَهُ مِنَ الفِتَنِ) أَيْ: يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ، وَأَشَارَ بِتَقْدِيمِ الشَّرْطِ إِلَى أَنَّ إِمْكَانَ ذَلِكَ بَعِيدٌ لَا يَتَيَسَّرُ لِكُلِّ أَحَدٍ.

وَفِي التِّرْمِذِيِّ حَدِيثُ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِتْنَةً فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ فِيهَا؟ قَالَ: «**رَجُلٌ فِي مَاشِيَتِهِ يُؤَدِّي حَقَّهَا وَيَعْبُدُ رَبَّهُ**»[٢] الحَدِيثُ.

وَرَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ**» قَالَ: «**ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ، يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ**»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل؛ ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن عن رسول ﷺ، باب ما جاء كيف يكون الرجل في الفتنة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب: أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله؛ ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط.

ورَوَى النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو: «**وَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَرِجَتْ**[1] **عُهُودُهُمْ، وَقَلَّتْ**[2] **أَمَانَاتُهُمْ، وَكَانُوا هَكَذَا ـ وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ ـ فَالْزَمْ بَيْتَكَ وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَعَلَيكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ العَامَّةِ**»[3].

فَلَا تكُـنْ تَـأس عَلَـى الـمَحَافِلِ   فَقَـدْ رُزِقْـتَ فَضْـلَ الـمَنَازِلِ

(**فَلَا تَكُنْ تَأَسْ**) أَيْ: تَحْزَنْ (**عَلَى المَحَافِلِ**) أَيْ: المَجَامِعِ، وَانْفَرِدْ عَنِ النَّاسِ وَاعْتَزِلْهُمْ، (**فَقَدْ رُزِقْتَ فَضْلَ المَنَازِلِ**) قَالَ الوَرَّاقُ[4]: «وَجَدْتُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فِي القِلَّةِ وَالخُلْوَةِ، وَشَرَّهُمَا فِي الكَثْرَةِ وَالاخْتِلَاطِ».

وَقَالَ غَيْرُهُ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْقُلَ العَبْدَ مِنْ ذُلِّ المَعْصِيَةِ إِلَى عِزِّ الطَّاعَةِ آنَسَهُ بِالوَحْدَةِ، وَأَغْنَاهُ بِالقَنَاعَةِ، وَبَصَّرَهُ بِعُيُوبِ نَفْسِهِ».

قَالَ الصُّوفِيَّةُ: وَلَابُدَّ لِمَنْ أَرَادَ العُزْلَةَ وَالانْفِرَادَ أَنْ يُحَصِّلَ مِنَ العُلُومِ الأَصْلِيَّةِ مَا يُصَحِّحُ بِهِ عَقْدَ تَوْحِيدِهِ لِئَلَّا يَسْتَهْوِيَهُ الشَّيْطَانُ بِوَسَاوِسِهِ، ثُمَّ يُحَصِّلُ

---

(١) مرجت: اختلَّت وفسدَت.

(٢) في المطبوع: وخانت

(٣) أخرجه النسائي في كتاب عمل اليوم والليلة، حديث رقم ٢٠٥. (راجع ص ٢٣٠، دراسة وتحقيق د. فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة)

(٤) هو: أبو بكر محمد بن عمر الورّاق الترمذي ويلقب بـ«الحكيم» أحد علماء **أهل السنة والجماعة** ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري. من حِكَمِه: «**شُكْرُ النِّعْمَةِ: مُشَاهَدَةُ المِنَّةِ**»، وَ«**مَنْ أَرْضَى الجَوَارِحَ بِالشَّهَوَاتِ غَرَسَ فِي قَلْبِهِ شَجَرَ النَّدَامَاتِ**». (راجع الرسالة القشيرية، ص٦١، دار الكتب العلمية، ط٢٠٠١).

مِنْ عُلُومِ الشَّرْعِ مَا تُؤَدَّى بِهِ فَرَائِضُهُ لِيَكُونَ أَمْرُهُ مُحْكَمَ الأَسَاسِ.

فَــزَكِّ أَعْمَالَــكَ إِذْ أُهِّلْتَــا لِــذَاكَ تُــدْرِكْ كُلَّمَــا أَمَّلْتَــا

(**فَزَكِّ أَعْمَالَكَ**) بِتَنْمِيَتِهَا وَتَكْثِيرِهَا؛ (**إِذْ أُهِّلْتَا لِذَاكَ، تُدْرِكْ كُلَّمَا أَمَّلْتَا**) أَيْ: رَجَوْتَ عِنْدَ اللهِ.

قَالَ ﷺ حِكَايَةً عَنْ رَبِّهِ: «**وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَإِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

وَانْظُـرْ إِلَـى القَلْـبِ وَلَا تَنْسَـاهُ مُطَهِّـراً مِـنْ كُـلِّ مَـا كَسَـاهُ

مِنْ دَنَـسِ الغِلِّ وَمِـنْ رَيْـنِ الحَسَـدْ فَفِي صَلَاحِ القَلْبِ إِصْلَاحُ الجَسَدْ

وَالكِبْـرِ وَالبَغْـيِ بِغَيْـرِ الحَـقِّ وَالاحْتِقَـارِ لِأَقَـلِّ الخَلْـقِ

(**وَانْظُرْ إِلَى القَلْبِ**) مِنْكَ (**وَلَا تَنْسَاهُ، مُطَهِّراً**) لَهُ (**مِنْ كُلِّ مَا كَسَاهُ مِنْ**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع. قال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله: قوله: «وكنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها» هذه أمثال ضربها، والمعنى ـ والله أعلم ـ توفيقه للأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وتيسير المحبة له فيها، فيحفظُ جوارحَه عليه، ويعصِمه عن مُواقعة ما يكرهُ الله: من إصغاء إلى اللهو بسمعه، ونظر إلى ما نُهي عنه ببصره، وبطشٍ إلى ما لا يحل له بيده، وسَعْي في الباطل برجله. وقد يكون معناه سرعة إجابة الدعاء والإنجاح في الطلبة، وذلك أن مساعي الإنسان إنما تكون بهذه الجوارح الأربع. (أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، ٢٢٥٩/٣، جامعة أم القرى، ط١، ١٤٠٩هـ)

دَنَسِ الغِلِّ) أَيْ: الغِشِّ الـمُحَرَّمِ؛ لِلْوَعِيدِ عَلَيْهِ فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ: «**مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا**»[1].

(وَمِنْ رَيْنِ الحَسَدِ) بِالرَّاءِ المُهْمَلَةِ، أَيْ: دَنَسِهِ الَّذِي يَغْلِبُ عَلَى القَلْبِ وَيُسَوِّدُهُ، وَهُوَ حُبُّ زَوَالِ نِعْمَةِ شَخْصٍ، فَإِنَّهُ حَرَامٌ؛ لِلْوَعِيدِ عَلَيْهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ**﴾ [النساء: ٥٤]، وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ**»[2] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، إِلَّا فِي نِعْمَةِ كَافِرٍ أَوْ فَاجِرٍ تُعِينُهُ عَلَى الإِفْسَادِ.

أَمَّا حَدِيثُ الصَّحِيحَيْنِ: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ**»[3] إِلَى آخِرِهِ فَمَحْمُولٌ عَلَى الغِبْطَةِ، أَيْ: تَـمَنِّي أَنْ يَكُونَ مِثْلُهُ بِدُونِ زَوَالِهِ.

(فَفِي صَلَاحِ القَلْبِ إِصْلَاحُ الجَسَدِ) كُلِّهِ، وَفِي فَسَادِهِ فَسَادُهُ، كَمَا فِي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من غشنا فليس منّا» ولفظه: «من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا». وأما البخاري فأخرجه في صحيحه عن عبدالله بن عمر، كتاب الديا، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، بلا زيادة: «من غشنا فليس منّا» واللفظ الذي أورده المؤلف أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البيوع عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع.

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي هريرة، في سننه، كتاب الأدب، باب في الحسد، وابن ماجه عن أنس بن مالك، في سننه، كتاب الزهد، باب الحسد.

(٣) والحديث: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها»، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة؛ ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن.

حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ[١].

(وَ) من (الكِبْرِ) قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنِّي لَيُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَناً وَنَعْلِي حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، وَلَكِنَّ الكِبْرَ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسَ**»[٢] رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَبَطْرُ الحَقِّ: دَفْعُهُ، وَغَمْطُ النَّاسِ: احْتِقَارُهُمْ.

(**وَالبَغْيِ بِغَيْرِ الحَقِّ**) أَيْ: الظُّلْمِ لِلنَّاسِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ**﴾ [الأعراف: ٣٣]، وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ حَدِيثَ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا ـ مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ ـ مِنَ البَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»[٣].

(**وَالاحْتِقَارِ لِأَقَلِّ الخَلْقِ**) فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ وَلِيّاً لِلَّهِ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي، وَقَدَ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ**»[٤].

---

(١) وهو قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه وعرضه؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه. قال الإمام النووي: بطَرُ الحَقِّ: دَفْعُهُ وَإِنْكَارُهُ تَرَفُّعاً وَتجبُّراً. (المنهاج، ج٢/ص٩٠)

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب؛ وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي؛ وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البغي.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم.

وَقُـــلْ إِذَا ابْتُلِيـــتَ بِالرِّيَـــاءِ   يَـا نَفْـسُ عَـيْنُ اللهِ مِـنْ وَرَائِـي

(وَقُلْ إِذَا ابْتُلِيتَ) امْتُحِنْتَ (بِالرِّيَاءِ) فِي الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ: (يَا نَفْسُ عَيْنُ اللهِ مِنْ وَرَائِي) أَيْ: اللهُ مُطَّلِعٌ عَلَيَّ وَمُحِيطٌ بِي عِلْماً وَقُدْرَةً، وَقَدْ نَهَى عَنِ الرِّيَاءِ وَسَمَّاهُ شِرْكاً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، فُسِّرَ الشِّرْكُ هُنَا بِالرِّيَاءِ، فَلَعَلَّهَا تُقْلِعُ بِذَلِكَ وَتُخْلِصُ.

وَجَانِـبِ البُخْـلَ وَكُـنْ ذَا بَـذْلِ   فَكُـــلُّ دَاءٍ دُونَ دَاءِ البُخْـــلِ

(وَجَانِبِ البُخْلَ) أَيْ: اتْرُكْهُ (وَكُنْ ذَا بَذْلِ) بِسُكُونِ الـمُعْجَمَةِ، أَيْ: إِعْطَاءٍ، (فَكُلُّ دَاءٍ) أَيْ: مَرَضٍ (دُونَ دَاءِ البُخْلِ) أَيْ: أَقَلَّ مِنْهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧] الآيَةُ، وَقَالَ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الجُودَ»(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ الجَنَّةِ»(٢).

وَالبُخْلُ: مَنْعُ الوَاجِبِ، وَاسْتِصْعَابُ العَطِيَّةِ.

وَقِيلَ: مَنْ أَعْطَى البَعْضَ فَهُوَ سَخِيٌّ، أَوِ الأَكْثَرَ فَهُوَ جَوَادٌ، أَوْ قَاسَى وَآثَرَ

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأدب عن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في النظافة.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في السخاء.



غَيْرَهُ فَهُوَ مُؤْثِرٌ[١]، وَمَنْ لَمْ يَبْذُلْ شَيْئاً فَهُوَ بَخِيلٌ.

وَعَــوِّدِ الرِّقَّــةَ قَلْبــاً قَــدْ قَسَــى   عَسَــاكَ تَنْجُــو مِــنْ بَلَايَــاهُ عَسَــى

(وَعَوِّدِ الرِّقَّةَ قَلْباً قَدْ قَسَى)؛ لِلْوَعِيدِ عَلَى قَسَاوَةِ القَلْبِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ [الزمر: ٢٢]، قَالَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ**»[٢] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

(عَسَاكَ) أَيْ: لَعَلَّكَ إِذَا فَعَلْتَ جَمِيعَ مَا ذُكِرَ **(تَنْجُو مِنْ بَلَايَاهُ عَسَى)** كَرَّرَهُ تَأْكِيداً.

نَصَـحْتُ وَالنُّصْـحُ أَسَـاسُ الـدِّينِ   فَخُـذْ صَـحِيحَ العَقْـدِ عَـنْ يَقِـينِ

وَاتَّبِـعْ ضِـيَاءَ الكَوْكَـبِ الوَقَّـادِ   تُفْـضِ إِلَـى صِـحَّةِ الاعْتِقَـادِ

(نَصَحْتُ) أَيْ: أَخْلَصْتُ لَكَ المَوْعِظَةَ فِيمَا ذَكَرْتُ **(وَالنُّصْحُ أَسَاسُ الدِّينِ)** كَذَا فِي الحَدِيثِ السَّابِقِ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»[٣]، وَذَكَرَ الأَسَاسَ إِشَارَةً إِلَى قَوْلِ العُلَمَاءِ: هَذَا الحَدِيثُ قَاعِدَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الدِّينِ.

(فَخُذْ صَحِيحَ العَقْدِ عَنْ يَقِينٍ) أَيْ عِلْمٍ، **(وَاتَّبِعْ ضِيَاءَ)** هَذِهِ الأُرْجُوزَةِ

---

(١) وإليهم الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ وأبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب في البكاء على الميت.

(٣) سبق تخريجه، وقال الإمام النووي: هذا حديث عظيم الشأن، وعليه مدار الإسلام. (المنهاج، ج٢/ص ٣٧)



(الكَوْكَبِ الوَقَّادِ) أَيْ: النَّجْمِ الشَّدِيدِ الضِّيَاءِ، **(تُفْضِ إِلَى صِحَّةِ الاعْتِقَادِ)** وَتُخَلِّصُ مِنْ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ وَالبِدَعِ.

وَالتَّسْمِيَةُ بِالكَوْكَبِ وَالوَصْفُ بِالاهْتِدَاءِ الـمُعَبَّرِ عَنْهُ بِصِحَّةِ الاعْتِقَادِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

ثُـمَّ اسْـتَعِنْ بِـاللهِ فِـي الأُمُـورِ ... فَلَـيْسَ غَيْـرَ اللهِ مِـنْ ظَهِيـرِ

(ثُمَّ اسْتَعِنْ بِاللهِ) أَيْ: اطْلُبْ مِنْهُ الـمَعُونَةَ **(فِي الأُمُورِ)** كُلِّهَا؛ **(فَلَيْسَ غَيْرَ اللهِ)** بِالنَّصْبِ خَبَرُ «لَيْسَ»، وَاسْمُهَا الـمَجْرُورُ بِـ«مِنْ» الزَّائِدَةِ فِي قَوْلِهِ: **(مِنْ ظَهِيرِ)** أَيْ: مُعِينٍ.

وَالحَمْـدُ لِـلَّهِ عَلَـى مَـا يَسَّـرَا ... فَقَـدْ نَظَمْـتُ لِلمَـوَاتِ دُرَرَا

أَتْحَفْتُـهُ بِأَفْضَـلِ الاتْحَـافِي ... وَحَسْـبِيَ اللهُ وَنِعْـمَ الكَـافِي

(وَالحَمْدُ لِلَّهِ) عَوْداً عَلَى بَدْءٍ **(عَلَى مَا يَسَّرَا)** مِنْ نَظْمِ هَذِهِ الأُرْجُوزَةِ، **(فَقَدْ نَظَمْتُ لِلمُوَالِي)** بِضَمِّ الـمِيمِ، أَيْ: الـمُنَاصِرِ **(دُرَراً)** أَيْ: فَوَائِدَ نَفِيسَةً كَالجَوَاهِرِ.

(أَتْحَفْتُهُ بِأَفْضَلِ الاتْحَافِي) أَيْ: أَهْدَيْتُ لَهُ أَفْضَلَ هَدِيَّةٍ، **(وَحَسْبِيَ)** أَيْ: الكَافِي **(اللهُ وَنِعْمَ الكَافِي)** هُوَ.

ثُـمَّ الصَّـلَاةُ مَـعَ أَزْكَـى الـذِّكْرِ ... عَلَـى النَّبِـيِّ الـمُصْطَفَى ذِي الفَخْـرِ

(ثُمَّ الصَّلَاةُ مَعَ أَزْكَى الذِّكْرِ) أَيْ: أَظْهَرِ الثَّنَاءِ **(عَلَى النَّبِيِّ الـمُصْطَفَى ذِي الفَخْرِ)**.

نَظَمْتُــهُ فِــي عَــدَدِ مُخْتَــارَهُ   مُوسَــى وَزَادَت الخَمْسَــةُ أَنْــوَارَهُ

(**نَظَمْتُهُ**) أَيْ: الكِتَابَ الدَّالَّ عَلَيْهِ القَرِينَةُ، أَوْ النَّظْمَ الدَّالَّ عَلَيْهِ فِعْلُهُ (**فِي عَدَدِ**) خَمْسَةٍ وَسَبْعِينَ، أَشَارَ إِلَى السَّبْعِينَ بِقَوْلِهِ: (**مُخْتَارَهُ**) أَيْ: مُخْتَارُ (**مُوسَى**) الَّذِي حَكَاهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿ **وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا** ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وَنَصَبَهُ بِإِضْمَارِ «أَعْنِي»، وَذَكَرَ الخَمْسَةَ بِقَوْلِهِ: (**وَزَادَتْ الخَمْسَةُ أَنْوَارَهُ**) لِأَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الحَمْدِ وَالصَّلَاةِ أَوَّلَ الكِتَابِ وَآخِرَهُ، فَكَأَنَّهَا أَكْسَبَتْهُ نُوراً لِاشْتِمَالِـهَا عَلَى الـمَطْلُوبِ شَرْعاً الـمُقْتَضِي لِـحُصُولِ البَرَكَةِ فِيهِ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَاجَةَ: «**كُلُّ أَمْرٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللهِ أَجْذَمُ**»[1] أَيْ: قَلِيلُ البَرَكَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ [الشرح: ٤] أَيْ: لَا أُذْكَرُ إِلَّا ذُكِرْتَ مَعِي لِطَلَبِي ذَلِكَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

آخِرُ الكِتَابِ، وَلِـلَّهِ الحَمْدُ وَالـمِنَّةُ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

**   **   **

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، بلفظ: «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد أقطع».